

ABU ABDO ALBAGL

سبع حكايا تعود من بعيد

تأليف: جان كريستوف روفان
ترجمة وتقديم: ليلى بدر



إبداعات عالمية

فبراير 2016

411

مدونة ابو عبدو



SSB3

سبع حکایا تَعُود من بعید

سبع حكايا تعود من بعيد

تأليف: جان كريستوف روفان

ترجمة وتقديم: لينا بدر

مراجعة: أ. د. كاميليا صبحي



تصدر كل شهرين من

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرقيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل المنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-476-4

سبع حكايا تعود من بعيد
جان كريستوف روفان

الكتاب الأصلي

Jean-Christophe Rufin
**Sept Histoires
qui reviennent de loin**

© Editions GALLIMARD, Paris, 2011

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م
إبداعات عالمية - العدد 411

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)

1	 المقدمة
11	 شغف فرنكوفوني
33	 الغارقون
57	 ملجأ ديلبييرو
75	 ليلة مناوية
87	 عشاق لورنسو مارك
97	 حارس الرداء
115	 قطار الحياة

المقدمة

جان كريستوف روفان

ولد في مدينة «بورغ» في فرنسا في 1952/6/28.

طبيب ومؤرخ وكاتب ودبلوماسي.

بعد رحيل والده الطبيب البيطري، وكان جان ما يزال طفلاً، لم تتمكن أمه التي كانت تعمل في حقل الدعاية بباريس من تربيته بمفردها فتكفل به جداه، ويعد أن نال تعليمه الثانوي، دخل كلية الطب ومعهد الدراسات السياسية في باريس. على الرغم من اختياره اختصاص طب الأعصاب لكنه في العام 1976 ذهب لإتمام خدمته الإلزامية كطبيب مساعد بالتوليد في تونس.

أكمل عمله كطبيب حتى أصبح رئيس عيادة ثم ملحقاً تابعاً لوزارة الصحة في مستشفيات باريس. منذ العام 2002 ترأس حركة ضد الجوع ليغادر وظيفته في 2006، ويكرس وقته للكتابة.

يعد كطبيب من رواد الحركات الإنسانية لمنظمة «أطباء بلا حدود».

كان رئيساً للعديد من البعثات في أفريقيا الشرقية وأميركا اللاتينية.

قادته أولى مهامه في العام 1976 إلى أريتيريا التي دمرتها الحرب آنذاك. دخل إليها متخفياً مع القوات المتمردة في قلب الأفواج الإنسانية. صادف هناك أزيب التي أصبحت زوجته الثانية.

في العام 1985 أصبح المدير الطبي لـ «حركة ضد الجوع» في أثيوبيا.

ما بين 1991 - 1993 صار نائب رئيس منظمة أطباء بلا حدود.

ما بين 1994 - 1996 عيّن مديراً للصليب الأحمر الفرنسي. في العام 1999 كانت وظيفته في كوسوفو مديراً لجمعية «الطوارئ العاجلة».

ما بين 1986 - 1988 أصبح مستشار أمين سر الدولة لحقوق الإنسان.

ما بين 1989 - 1990 أوفد إلى البرازيل كملحق ثقافي. بقي في وزارة فرانسوا ليوتاربه لمدة سنتين مديراً للأبحاث في معهد العلاقات الدولية والإستراتيجية.

ما بين 1996 - 1999 قاد الحملة الإنسانية إلى البوسنة والهرسك.

بتاريخ 2007/9/3 عين سفيراً لفرنسا في كل من السنغال وغامبيا، وترك مهامه في العام 2010.

مناصبه الأدبية

كرس أكثر من عشرين سنة من حياته للعمل في المنظمات الإنسانية غير الحكومية في كل من نيكاراغوا وأفغانستان والفلبين ورواندا ودول البلقان. أتاح له هذه التجربة على أرض الواقع أن يتفحص دور المنظمات الإنسانية في مواقع الصراع، وبخاصة في كتابه الأول «الفخ الإنساني»، وهو دراسة حول الرهانات السياسية للعمل الإنساني وتناقضات تلك

المنظمات التي تتوجه إلى إغاثة الشعوب المنكوبة وتفيد بذلك الحكام الديكتاتوريين عن غير قصد، كما أوضح ذلك أيضاً في روايته «القضايا الخاسرة».

رواياته التاريخية والسياسية والمغامراتية كلها من وحي أسفاره ومشاركاته الميدانية.

تلقي العديد من الجوائز عن أعماله، ومنها:

جائزة الريشة الذهبية من جمعية مؤلفي السافوا.

جائزة غونكور وجائزة البحر المتوسط لرواية «الحبشي».

جائزة أنتراليه عن رواية «القضايا الخاسرة».

للمرة الثانية ينال جائزة غونكور عن رواية «برازيل الحمراء» في العام 2001.

حازت رواية «الديكتاتور الليبيرالي» على جائزة جان جاك روسو.

انتخب في العام 2008 عضواً في الأكاديمية الفرنسية، وهي أعلى هيئة ثقافية في فرنسا، والتي يطلق على أعضائها «الخالدون»، وبذلك يكون الأصغر سناً بينهم.

استلهم أعماله الأدبية من تجربته كطبيب ودبلوماسي في أكثر الأماكن بؤساً وتخلّصاً في العالم، لهذا تأتي كتاباته غنية وناضجة بحس إنساني عال، فهي تبحث في مسألة تلاقي الحضارات والعلاقة بين البلدان.

أسلوبه رشيق وبسيط، وترجمت كتبه إلى أكثر لغات العالم.

كتابه الأخير «سبع حكايا آتية من بعيد» يروي فيه سبع قصص بحيزها الزمني القصير لينقل لنا لمحات شيقة عن أناس من أفريقيا وآسيا وجزر الأنتيل وأوروبا.

في هذا العمل، يدخل الكاتب جان كريستوف روفان للمرة الأولى في مضمار القصة القصيرة، هو الروائي الذي لا تكفيه الرواية عادة لسرد حكاياه. أراد أن ينقل للقارئ تجاربه الحياتية ككاتب ودبلوماسي، وبالدرجة الأولى كإنسان شهد التنوع الحضاري في العالم الذي جابه سواء بحكم عمله الدبلوماسي أو في البعثات الإنسانية العديدة التي شارك بها وترأس بعضها. هناك تلاعب بالكلمات حين يقول «من بعيد»، هذا البعيد المرتكز على الزمان والمكان. تنقلنا بعض هذه الحكايا إلى بلاد غريبة وثقافات مختلفة، وتقوم بدور صلة الوصل بين البعد الجغرافي والبعد الزمني.

من موزمبيق إلى كيرغستان، من جبال الألب الإيطالية إلى سواحل جزيرة موريس، سبع حكايا مضمة بروائع البحر والبر، لكنها تقطر فطنة عالية تجاه حال العالم والدوافع العميقة للكائنات البشرية. هي تدعو القارئ إلى رحلة خارجة عن المألوف بصحبة أشخاص قدرها واحد تقريباً، مشدودة بطريقة ما إلى ماضيها، وهذا البزوغ للماضي هو الذي يسبب التحول في الشخصيات، إذا كانت تنقلنا إلى زوايا العالم الأربع، لكن الحكاية تتعلق بشخصيات تحت رحمة ظروف لا يمكن تجاوزها. تكشف هذه النماذج نقاط ضعف وحيناً وآمالاً تأبى الاندثار.

عبر هذه الحكايا نصادف حضارات غير قابلة للتعايش، جروحاً من التاريخ لم تندمل بعد، ولكن غير ذلك، حالات حب عبر القارات وأوقاتاً سعيدة تتشاركها الشعوب. وإذا كان للقصة القصيرة ألياتها المتعارف عليها في عالم الكتابة فإن روفان في أناقة أسلوبه وجمال لغته، والأهم من كل ذلك نهاية الحكاية

المنطوية على مفاجأة، حقق هنا «ضريبة المعلم» التي يستمتع القارئ بها في ختام القصة.

هل تأتي من خيال جان كريستوف روفان؟ من أي روفان تصدر؟ من الطبيب الإنساني؟ من السفير السابق؟ أم من الروائي المكرم بالجوائز؟ هو الكاتب الرحالة الباحث عن كنزه، تحت أكوام التراب والحصى تظهر له فينقض عليها بكل سرور. في أغلبها وصف لمشاهداته، فلقد كانت أمامه كل الفرص كي يدرك بإحساسه الإنساني العالي القضايا المعاصرة الكبرى. برؤيته الفريدة أعطى للقضايا وجوها إنسانية نقرأها في هذه الحكايا.

المفاجأة في هذه المجموعة هو أسلوب ينحو إلى التهكم والسخرية المطعمة بالخيال تارة وبالشعرية تارة أخرى حسب الحاجة، فتكشف عن كاتب حاد البصيرة ودقيق الفكر. إنها لحظات حياة يشاركنا إياها بمرح وانضباطية عالية. جملة الوصفية الفضفاضة عادة تتخذ هنا شكلاً قصيراً تجميلياً وفعالاً.

مزدرياً السرد الطويل يتجه نحو الحدث بشكل مباشر، فيضع القارئ أمام المختصر المفيد، الجمل صادقة ومنمقة، غنية بالذكريات الخاصة.

روفان طبيب الجسد وطبيب الروح أفضل من يرى الاختلاجات المأساوية للعالم، لهذا تأتي أعماله كلها في مصاف متقدم لقارئ من العالم.

القصة الأولى، «شغف فرنكوفوني» تحكي عن ابنة دبلوماسي من كيرغستان مدللة إلى حد النزوات تصل إلى فرنسا مع مرافقتها. ها هي تكسر محتويات غرفة الفندق في قلب العاصمة الفرنسية، هي الشغوفة بكل ما هو فرنسي، ولا يتمكن أحد من

التفاهم معها باللغة التي تعلمتها على يد أستاذ نصاب كان يقبع في سجون الأب، واحتال على الاثنين معا، وبدأ بإعطاء الفتاة دروسا خصوصية باللغة الفرنسية كما يدعي. تقع الفتاة في حبه إلى أن يحين وقت الفرار، يقترح المغادرة إلى فرنسا قبلها بعد أن أعطته كل مدخراتها وكلها أمل أن يشتري شقة حبهما هناك. يسارع الأب بترجيله خوفا على ابنته الهائمة به. عند اكتشافه لألعيه يكشف الابنة التي ترفض التصديق، وتقع فريسة الغم وهو الذي لا يطيق رؤيتها على هذه الحال. عند تفكك الاتحاد السوفييتي واستقلال الجمهوريات الواحدة تلو الأخرى تبدأ الرحلات السياحية إلى أوروبا، فترى الابنة فرصتها بالسفر لعلها تلتقي الحبيب الهارب. حبكة القصة تدور حول سوء فهم اللغة التي تتحدثها الفتاة ويلتئم جمعٌ مؤلفٌ من المدير وبعض موظفي الفندق وعناصر الشرطة للوقوف أمام هذا الإشكال، إلى أن يفهم لغتها أحد الموظفين المهاجرين من أصل هنغاري. تحل المسألة بسلاسة دون تعقيد، وتستمر الفتاة بالاعتقاد أن هناك من يفهم فرنسيها أخيرا.

يتطرق الكاتب هنا إلى مشكلة المهاجرين من جنسيات متعددة إلى بلده الأم، وتتوضح عبر الحوار الأخير نظرة السكان الأصليين لهم، كما يلمح بأسلوب يقارب السخرية إلى نظام الحكم الديكتاتوري القمعي في روسيا الاتحادية.

في «الغارقون» يأخذنا الكاتب إلى جزيرة موريس في المحيط الهندي، حيث يعيش من تبقى من الاستعماريين البيض. زوجان في سن التقاعد يتحققان من أنه لم يعد لهما مكان وسط الشعب الهندي الذي يجتاح الجزيرة، حين يكتشفان ذات صباح تمثالا

للإلهة شيفا على شاطئ حيزهما المسمى خليج القرصان، يقوم الزوجان بعمل لا يلائم سنهما، عمل يقارب الجنحة، إذ يسحبان التمثال ذات ليلة ليأخذهما في سيارتهما الجيب إلى تل في أعلى الجزيرة حيث تتجمع أماكن العبادة. بعد مغامرة المراهقة هذه يتضح عدم جدوى عملهما، إذ يحل محل التمثال مزار كامل للصلاة والحج.

هنا يبرز الكاتب الحس الاستعماري المتأصل لدى البيض وشعورهم بملكية المكان ورغبتهم بامتلاك الزمان الذي تغير لصالح الهنود في النهاية.

صراع طبقي ونفسي في الوقت ذاته، إذ إن توسع الطبقة الشعبية يخرب الصورة المثالية للجزيرة، ويزيل الزمن الجميل إلى غير رجعة، لا استعمار دون عبودية مهما ادعى تنظيم الحقوق، الغلبة للسكان الأصليين مهما طال الزمن.

روفان المولع بالجبال والقمم يأخذنا في قصة «ملجأ ديلبييرو» إلى مرتفعات «دولوميتي» الإيطالية في جبال الألب مع متسلق جبال عتيق وفي لهواية لم يمارسها منذ عقود، ويعود مصطحبا عائلته للقيام برحلة على الأقدام إلى مكان لم يعد له وجود. يتخذ دور المرشد الصارم التقليدي مجبرا إياهم على حمل معدات ومؤن تصلح لبلوغ القمة البيضاء في عز موسم الثلوج. بعد مشقة وعناء وتذمر تنتهي الجولة إلى اللامكان؛ فالاستراحة أزيلت منذ عهد طويل وهو لا يدري.

إنه دون كيشوت بلباس مرشد لتسلق الجبال يلاحق ماضيه وأحلامه. لولا حس الفكاهة الساخر الذي يتجلى لدى الكاتب لكانت القصة مأساوية.

مما لا شك فيه أن قصة «ليلة مناوية» تمثل ذكرى خاصة لدى الطبيب الكاتب في بداية عهده، تجري أحداثها في أحد مستشفيات المعونة الاجتماعية في باريس، إنها تجربة حية، لهذا أتى الوصف فيها دقيقا تتداخل فيه نظرة الطبيب والكاتب معا. النقطة التي تركز عليها القصة هي «شهادة الوفاة»، هو الطبيب الداخلي المبتدئ يطلب منه في ليلة مناويته تأكيد وفاة أحد المرضى في قسم الرعاية الصحية طويلة الأمد، كيف سيتمكن شاب في مستقبل العمر لا يعرف عن الموت شيئا سوى تعريفه الطبي من أن يكون المسؤول بطريقة ما عن إنهاء مسيرة حياة طويلة، مستذكرا «شهادة الميلاد»، كأن الأمر متوقف على ما ندونه في سجلاتنا الاجتماعية من بيانات وحالات، ها هو يواجه الموت حتميا، ويقع تحت اختبار الكشف عنه وتأكيد.

في عشاق لورنسو مارك يذكر الكاتب بموزمبيق الزمن الغابر في سنوات الستينيات عندما كانت العاصمة تدعى لورنسو مارك قبل أن يطلق عليها اسم «مابوتو» في العام 1976. يعود إليها الراوي بعد أربعين عاماً من الغياب حين كان عازف كمان هاويا. يتداخل في هذه القصة الخاص بالعام، فتاريخ البلاد وما طرأ عليها من بعد العهدة البرتغالية والاستقلال.

يقوم البطل بمسيرة نحو العاصمة لملاقاة خطيبته بعد أن افترقا وعاش كل منهما حياته ليعاودا اللقاء في المكان نفسه حيث افترقا. في رحلته ما بين بيته ورصيف الميناء ينقل لنا روفان صورا عن البلاد وما شهدته من أحداث دامية لتصل إلى الحداثة الغربية المتناقضة مع الأصول والتراث المحلي. تباين أحدثته العولمة بشكل يجعل الارتباب الإحساس الطافي على

إنسان العصر الحالي. يتوقف الزمن في المشهد الأخير في لقطة حنين للماضي الجميل بكل ما يحمله من مساوئ.

صحيح أن قصة «حارس الرداء» تجري في سريلانكا، لكن إحدى الشخصيات تروي قصتها الخاصة لتتداخل فيها الحالة السياسية للجزيرة مع قصة والد الدبلوماسي في معتقل باكنفالد النازي. يبوح الدبلوماسي الغاضب لصديقه الموظف في السفارة أيضا بمغامرة راهوال العامل الهندي الذي يقوم بخدمته في المنزل، فقد استشف منه إرسال ابنه الأصغر إلى معسكرات تدريب المقاتلين والانتحاريين دون ورع أو تردد. كان ريترو هو اسم الدبلوماسي يحتفظ في خزانته بقميص والده الذي كان يلبسه في المعتقل كنوع من الوفاء لعذاباته المريرة. يفاجا براهوال أنه أخرج من علبته، وقام بتنظيفه وكيه وتعليقه على مشجب الخزانة.

جمع الكاتب هنا بين قصتي انعدام العدالة في عالمنا هذا، والمستمرة حتى يومنا، فلقد استنتج ريترو أن الوحش خرج من جديد من قمقمه، وكل محاولات الإنسانية هي لضبطه فقط لا غير، لكنه مستعد للخروج في أية لحظة من اللحظات. وينوه هنا إلى عمل المنظمات الإنسانية المحدود والمخيب للأمال على لسان شخصين أرادا الانخراط في هذا العمل رغبة منهما في إنقاذ العالم.

في «قطار الحياة» حيث الحركة في البعدين الزمني والمكاني، تدور أحداث القصة في قطار ما بين باريس ولوكسمبورغ متوقفا عدة محطات، وأهمها العطل الذي أجبره على التوقف. حوار بين غريبين «واسا» المهاجرة من مالي مع عائلتها والمقيمة في كييل

بألمانيا، ومصور صحافي حرفي منتصف العمر مبهور بملامحها
الجدابة وحركاتها العفوية النشطة وردود أفعالها العلنة.

تبوح له بعد توقف القطار وبإغواء ظريف بقصة حبها لشاب
ألماني ثري تتعجل الوصول إليه، باءت كل محاولاتها للزواج منه
بالفشل. تلعن حظها البائس، لكن هذا البوح الغريب للمصور
يوصلهما إلى اقتراح حل لمشكلتها العويصة.

من قدم الاقتراح؟ لم يعد أي منهما يذكر ذلك، لكن المهم أن
وأساً تزوجت فيما بعد من الشاب الألماني الجميل، وتعيش معه
حياة رغيدة مع ولديهما بكل الوفاء والحب. هنا يجعلنا الكاتب
شهوداً على قضايا المهاجرين الأجانب إلى أوروبا والنساء بشكل
خاص والعاملات منهن بالتحديد، مؤثراً كل تعاطف واهتمام
لوضعهن الإنساني البائس الحزين الموسوم بالتعب الجسدي
المنهك.

يأتي الاهتمام بهذا الكتاب لجان كريستوف روفان استمراراً
لمتابعة أعمال كاتب فذ من أهم كتّاب فرنسا، هو العضو الأصغر
سناً في الأكاديمية الفرنسية، ويكفي علماً أن أعضاءها يلقَّبون
بالخالدين كي نعرف قيمة هذا الكاتب الذي يتصف بالعالمية.
وقد أحسستُ كمن عثر على كاتب إنساني فريد في الأدب الفرنسي
الحديث، لهذا اعتبرته لقية ثمينة، وكان من الطبيعي أن يتعرف
على أدبه القارئ العربي.

أما بالنسبة لاختياري هذا العمل بالذات فلأنه أول مجموعة
قصصية للكاتب، وتقدم للقارئ المتعة والإفادة في الوقت ذاته.

شغف فرتكوفوني

- سيد بول! الغرفة 224... لقد حطمت كل شيء!
- كانت فيرجيني خادمة الغرفة قد نزلت مهرولة كي تخبر المدير فوجده في مكتبه. حالما وصل في الصباح أغلق على نفسه وشغل التلفاز. كانت القناة الأولى تتقل في ذلك اليوم زيارة غورباتشوف إلى الولايات المتحدة. قضية الساعة الآن، انهيار الاتحاد السوفييتي الذي يحدث مباشرة.
- حطمت كل شيء، أين؟ غمغم.
- في غرفتها طبعاً، قلبت السرير، المقاعد، الطاولة، كل شيء.
- سوف نعيد ترتيبها.
- لا، أنت لا تدرك. لديها قوة خارقة، بالنسبة لامرأة قصيرة مثلها. الملاءات، مزقتها إلى خيوط.. حطمت سطح الطاولة الرخامي.. لم يتبق أي مرآة في الغرفة.. إنها مجزرة.
- هل هي بمفردها؟
- معها تلك السيدة المسنة من السفارة، لكن يبدو أن هذا لا يهدئها بتاتا.
- السفارة! السفارة السوفييتية. هز السيد بول رأسه. كانت إحدى نتائج الأحداث الجارية، الوصول المفاجئ للسائحين الروس، بمباركة سفارتهم.

- بينما كانت تكسّر، لم تتوقف عن الثثرة، لم يفهم أحد ماذا تقول.

- سيدة السفارة لم تترجم لك؟

- هي، بالكاد تتفوه بثلاث كلمات فرنسية، اللغة الأجنبية الوحيدة التي تعرفها هي الألمانية.

- الألمانية؟ ردد السيد بول وهو يعدل جلسته.

قالت فيرجيني رأيها وهي تمنع نفسها عن الابتسام، كانت تعرف ماذا تفعل. عند كلمة «الألمانية»، أبدى السيد بول اهتمامه فجأة، وقف، شدّ على صدارته وأطفا التلفاز.. التاريخ يمكن أن ينتظر.

- سوف أذهب إليها، قال.

يدين في مهنته إلى اللغات الأجنبية، ومن بين كل تلك التي يتحدث بها، الألمانية هي المفضلة لديه. كانت والدته ذات الأصل الإلزاسي قد علمته إياها منذ طفولته.

حافظ داخل المصعد مع فتاة الغرفة على وجه رصين يستجمع أفكاره كملاكم يتجه نحو الحلبة. بالكاد وصلا إلى الطابق الرابع، سمعا الزعيق. أدرك فجأة مقدار خطورة الوضع. التحطيم يمكن غض النظر عنه، لكن الصخب لا يمكن السماح به داخل مؤسسة من هذه الفئة: أربع نجوم نيلت بالغالي، موقع من ذهب على بعد خطوتين من الشانزليزيه، زبائن من أرفع المستويات.

كان هناك بابان مفتوحان في طول الممر، ورجلان ببرنس الحمام استيقظا على نحو سيئ، يحتجان على الضوضاء التي دفعت بهما إلى خارج السرير. غمغم السيد بول اعتذارات عاجلة. حين وصل إلى الباب ٢٢٤، قرعه. جاءت على الفور

امراة شقراء وفتحت له . كانت متبرجة على الطراز السوفييتي القبيح الذي لا يمكن تقليده، وشعرها مرفوع فيه عقيصة منتزعة من صفحات «الموضة» من مجلة أيام فرنسا سنوات الستينيات . وكانت سحنتها متسلطة ومرتعة في الوقت ذاته، وهو مزيج شائع جدا عادة لدى حواشي السوفييت المرافقة للمفوضيات . أدخلت المدير إلى المدخل الصغير الممدود بالمخمل البني، والذي يستخدم كغرفة انتظار . كانت الأرضية تثر تحت الخطوات : المرأة القينيسية تحولت إلى شظايا، ووراء الباب المؤدي إلى الغرفة يُسمَع نحيب .

- أنا فرنسا، أنا ليس منذ زمن طويل، رطنت الدبلوماسية .. قبل فئينا .. النمسا، أنت تعرف الألمانية .

- بالتأكيد سيدتي، أجب السيد بول وهو يتابع تلك اللغة بسهولة . أنا أصغي إليك، ما الذي يجري؟ من تكون هذه الشخصية؟ وما سبب هذه الضوضاء؟

- شكرا شكرا، صاحت وهي تمسك بيدي المدير . كانت أصابعها المفتولة مغطاة بخواتم رخيصة، والطلاء يتقشر فوق أظفارها .

سحب السيد بول يديه بسرعة .

- هكذا، أيها المدير، هي، إنها ابنة وجيه من أعيان الدولة الكبار في كيرغستان . أنت تعرف أين تقع كيرغستان أليس كذلك؟ في آسيا الوسطى، قرب الهمالايا .

كانت الروسية تزفر حرف الهاء بشدة، وعلى غير علم منها كانت تقلد صوت الرياح الجليدية فوق القمم العالية .

- في جنوب روسيا، إذا أردت، يقطنها المغول . همّت بحركة

لتشدّ عينيهما ولكن، مراعاة منها لتبرج كلفها الكثير من العناء، امتنعت.

- برررد قارس في الشتاء، ولكن بلاد غنية: قطعان، مناجم، قمح..

ضحكت بعصبية، ثم أردفت بصوت خفيض وهي تمد عنقها:
- والد السيدة، أمين عام لبلاد كيرغستان الشيوعية، عائلة كبيرة، رئيس قبيلة، أتفهم؟
- وماذا تفعل هنا؟

- حلم! صاحت الروسية بلهجة صارت فجأة طنانة. حلم، أيها المدير! منذ الأزل تحلم السيدة بالمجيء إلى فرنسا.
ثم من جديد، وبصوت أخفض:

- قبل اليوم، مستحيل، إنها مراقبة بشدة، أتفهم؟
كان خوف المرافقة الشيوعية أشد من رياح الحرية التي تبدد معها الاتحاد السوفييتي القديم. خشيت أن تقول المزيد.
- مع السياسة الجديدة، ذات الشفافية، توسلت السيدة إلى والدها، ووالدها توسل إلى سلطات أعلى.

انحنى صوب السيد بول، وهمست نفخة بروج النعناع.
- غورباتشوف بذاته.

- فهمت، قال المدير وهو يبتعد. ذلك لا يفسر لي لماذا تحطم كل شيء.

عند هذه الكلمات، انفتح باب الغرفة فجأة. كان لدى السيدة التي تحديق بصمت في وجوه الدخلاء ما يدعو للخوف. كانت هيئتها وأمارات وجهها تذكر بمن نجا من إعصار. قد تكون في الثلاثينات من عمرها. وجه عريض ومسطح، شديد الشحوب،

ولكن كأن جمهوراً غاضباً رمى على هذه الشاشة الكامدة المواد الأكثر خبائة. أحمر شفاه مسحوق، كحل رموش متفش، آثار خدوش ترسم تشكيلة مضحكة. رغم الضيق الشديد الذي يعبر عنه هذا الوجه لكنه أثر بشكل أقل في خاطر السيد بول من مشهد الغرفة المنكوبة. مع ذلك لم تترك له السيدة فرصة الاستمتاع بمعاينة المكان. تقدمت نحوه وصويت إلى ربطة عنقه إصبعاً ملطخاً بالدماء، وتركت عليها بصمة كبيرة. كان السيد بول سيتراجع لو لم يسمّره الصوت القوي والأمر للسيدة الشابة في مكانه.

توجهت إليه مطولاً، كان خطابها غير مفهوم بتاتا، رغم أن المدير كان يتحدث عدة لغات ويألف الروسية، لم يتعرف إلى أي أصل، ولا أية نهاية، ولا حتى تلك الكلمات الفرنسية التي هاجرت إلى لغات الشرق، والتي تشير إلى المصائب: كارثة، كابوس.. لهذا السبب، كانت عبارات المسكينة لا معنى لها. كان الصوت يصدر للحظات قليلة شجياً، وفي لحظات أخرى يتضخم وكأنه يشرع بوصف السهوب الواسعة حيث تعبر القطعان، وانتهت بهمسة شبه مداعبة.

متأثراً بهذا التعزيم المثير للشجن، رفّ السيد بول بعينه، هزّ رأسه وهشّ ابتسامة. ابتسمت له المرأة بدورها وتحول التوتر العصبي إلى قهقهة شاملة. صار المدير سعيداً الآن وفخوراً لأنه أنهى الحادثة عند وصوله.

غير أن الكيرغستانيات التفتت ناحية ممثلة السفارة، وراحت تقول لها شيئاً بلغة مختلفة هذه المرة، تعرّف إليها السيد بول دون أن يفهمها: كانت تلك اللغة الروسية.

- تقول السيدة بأنك فهمتها، إنها مسرورة جدا جدا.
- فهمتها .. إذا أردنا؛ لنقل إنني أصغيت إليها جيدا و..
- توقفت الأجنبية الشاببة عن الابتسام، وقطبت جبينها وهي تصغي إلى السيد بول يتكلم. التفتت من جديد ناحية الدبلوماسية وتحدثت إليها بلهجة طفل متقلب الأطوار.
- هي، غير مسرورة، تريد أن تحدثها بالفرنسية، الفرنسية فقط، لا بل قالت: أفضل فرنسية.
- أثارت الملاحظة سخط المدير.
- ربما لا أستخدم أفضل فرنسية، ولكن هذه هي الفرنسية التي أتحدثها، ويبدو لي سيدتي، أنها صحيحة تماما.
- أدرك في تلك اللحظة أن الكيرغستاني كانت تنظر إليه وعلى وجهها سيماء الانتظار القلق.
- مرحبا بك في فرنسا، تلفظ السيد بول وهو يفصل كل حرف بكل وضوح ممكن. من غير المجدي أن تغضبي، قلبي لنا فقط إلى ماذا تحتاجين.
- لم تبد الفتاة المسكينة أية بارقة ذكاء وهي تصغي إلى هذه العبارة. كانت تركز إلى أقصى حد لكنها لا تلتقط على ما يبدو أية كلمة. بعد صمت دام طويلا، تراخت وشرعت تتنحب من جديد.
- صاح السيد بول بوجه المرأة الروسية بمزاج عكر.
- هل لك أن تقولي لي في النهاية، بأية لغة توجهت إليّ هذه الفتاة منذ قليل.
- لا أعرف.
- لا تعرفين.

- لا، هذه ليست الروسية.
- كنت أشك بالأمر. إنها تتحدث الروسية معك ومعى، تستخدم لهجة أخرى، ما هي؟
- ليس لدي أدنى فكرة.
- الكيرغستانية ربما؟ لديهم لغة بالتأكيد، هؤلاء القوم..
- لا أظن، لغتهم نوع من التركية، كان عندي رفاق كيرغستانيون في الجامعة، في موسكو. فضلا عن ذلك، حين تتحدث على الهاتف مع والدها، تستخدم الكيرغستانية الصحيحة وهي مختلفة جدا.
- إذا، ما الذي تتكلمه؟ ولماذا تحتفظ لي بتلك الهذرة؟ أخفضت الروسية عينيها، كان واضحا أن لديها الوقت أكثر من محدثها.
- تقول إنها تتحدث الفرنسية.
- الفرنسية! اللغة التي تستخدمها معى هي الفرنسية؟
- اطمئن، لست أول من صعب عليه فرنسيتها، منذ وصولها إلى باريس، لم تلتق شخصا واحدا يفهمها، لهذا، هي غاضبة جدا. هذا الصباح، دقت جرس نادل الطابق، جاء، لكنهما لم يتمكن من التحدث، كما يقال عندكم، هذا ما وضع النار فوق البارود.
- جلست الفتاة المسكينة فوق مسند أحد المقاعد المقلوبة، وراحت تبكي بصوت خافت. بقي أبطال المشهد الثلاثة صامتين، وسط خراب حطام الأثاث. كانت فتاة الغرفة تنتظر في الخارج، حين لم تعد تسمع أي صوت، مدت رأسها واستفهمت من مديرها بنظرة. نهض السيد بول، قلب كرسيين بحركة حاسمة، قدم واحدا للروسية وجلس على الآخر.

- عليّ أن أوضح هذا الفموض من فضلك، سوف تترجمين للسيدة الشابة أسئلتني إلى الروسية، وبالمقابل، سوف تعطينني أجوبتها بالألمانية.

- أولا، أتصل بالسفارة..

- فيما بعد، الآن، افعلي ما قلته لك.

عبثت الروسية بعقيصتها الشبيهة بالملفوف المذموم والملح، واتخذت هيئة تابع روسي خاضع ومستاء في الوقت ذاته.

- أسألها في البداية، أين تعلمت الفرنسية ومن علمها إياها.

لدى سماعها الترجمة، انتصبت الفتاة في كرسيها، وجلست بشكل مريح أكثر، ساقاها مثنيتان تحت فخذيها، أمسكت بمنديل كان مرميا على الأرض، راحت وهي تمسح وجهها تتحدث الروسية بلهجة هادئة وحزينة. كانت المترجمة توقفها كل خمس جمل كي تترجم. بدأت الحكاية تتساقط من تلقاء ذاتها دون حاجة لدفعها إلى الكلام.

حكيت في البداية عن طفولتها، كانت طفلة وحيدة، والدها رجل لا ينثني وعنيف، لا يتوانى عن رمي الناس في السسجن أو حتى تصفيتهم. كانت الروسية منزعجة قليلا لأنها تترجم عبارات كهذه تتعلق بواحد من أعيان الدولة الكبار، لكن في نهاية الأمر، لم تكن تفعل حتى الآن سوى الإذعان.

كل الناس في كيرغستان تخاف هذا الحاكم المستبد القاسي. ماتت زوجته وهي شابة، الشخص الوحيد الذي استطاع تهدئة غضب الطاغية كان ابنته المحبوبة. في ميلادها السابع، قدّم لها حصانا منغوليا صغيرا، كانا معا يمتطيانه في السهول الشاسعة الصفراء بسنابل القمح الناضجة، في أصياف آسيا الوسطى

الحارة. في الشتاء، كان لديها زلاجة يجرها حصان لونه أبيض، يصعد والدها في الخلف على مزلاجيه، يقف ممسكا اللجام، بينما تقوم وهي مدثرة بالجلسود، بالصياح مطلقة الأوامر وهي تضحك.

كان الحاكم يرتعد خوفا على ابنته، لدرجة أنه لا يحق لأحد الاقتراب منها، باستثناء بعض الخدم المراقبين بشدة. لديها بمفردها جناح كامل من القصر، يطل على ساحة الشرف، كان والدها يستحضر ألعابا من كل روسيا وحتى من البلاد الصديقة. ترعرعت وسط الدمى الكوبية ومصنوعات الليف الطبيعي القيتامية، كان كل همّ الحاكم، ألا يصيب ابنته السأم.

كو - مين، هو اسمها، وقد أدركت مبكرا أنها تملك بهذا سلاحا قويا؛ إن تنهدت وكان لنظراتها هيئة كئيبة، أو لو بدأت تتشاب في عزّما بعد الظهر، كان والدها المرتعب من فكرة تلفّظها فقط لكلمة ضجر، يستجيب مسبقا لكل نزواتها.

كانت تقرأ كثيرا، قدّم لها والدها المؤلفات الكاملة بلغة فرنسية، لا يمكن أن تكون سسيئة كليا، لأنها كانت روسية. الكونتيسة «دو سيفور» المولودة في روستوبشين، ملأت ليالي الفتاة الصغيرة. ترجمات «الشیطان الصغير» أو «الجنرال دوراكين»، كانت تفتح أمام الطفلة عالما جديدا، هو فرنسا. منذ ذلك الحين، رغبت قبل كل شيء بأن تتعرف إليها. غدّى والدها هذا الشغف بتزويدها بكتب أخرى، بالزك، دوما، جورج ساند، كانوا يؤججون كل بدوره الولع الفرنسي لدى كو-مين، لكن الوالد كابنته، كانا يعلمان إلى أين تتجه هذه الحكاية؛ سينتهي الأمر بالمراهقة ذات يوم إلى أن تطلب زيارة فرنسا، وسيكون والدها مكرها على الرفض.

في روسيا البريجينية، كان الجمود السياسي حلا لكل شيء. ليس واردا أن يرسل رئيس جمهورية سوفيتية ابنته بحرية إلى الغرب. كانت كو - مين تعرف ذلك. هكذا حادت عن متطلباتها نحو هدف يمكن نيله، إذا كانت لا تستطيع أن تذهب إلى فرنسا، فهي تريد على الأقل أن تتعلم الفرنسية. وافق والدها بارتياح، تبدت القصة أبسط من المتوقع، لم يكسب في ذلك الحين لا في العاصمة ولا في أي مكان آخر في السهوب أستاذ للغة الفرنسية. أرسل مبعوثين إلى البلدان المجاورة وحتى إلى موسكو، لتحريض أحد الطيور النادرة على ترك عمله، لكن دون جدوى.

كان والد كو - مين يحاول التخلي عن الفكرة حين علم ذات يوم أن داخل سجنونه يتعفن رجل يتقن الفرنسية. استحضره، كان هذا السجين شخصية غريبة؛ يقول إن عمره أربعون عاما، ويدعى أندريه، لكنه لا يملك أي مستند يؤكد أقواله. رجل قصير، شعره خفيف، لم يكن له وقع في النفس، لا من جهة عرض منكبيه ولا من جهة مظهره. كان يجلس فوق كرسيه متراجعا إلى الخلف بسحنة طفل حزين، لكنه ما إن يفتح فمه، حتى يستأثر بمحدثه ويخضعه لسحره. كانت لغته الروسية سلسلة، إنما تلونها لهجة لا يمكن تحديدها، تجعله أنيقا، وتضفي على أقل كلمة من كلامه المزيد من الفطنة.

أندريه هذا، شرح للحاكم أنه يوغسلافي من جهة الأب، هرب والداه إلى روسيا في نهاية الحرب، وترعرع في «تومسك». نشاطاته السياسية عندما كان طالبا بعمر الشباب أدت إلى إبعاده وإرساله في نهاية الستينيات إلى قرية سيبييرية صغيرة، ومنها لاذ بالفرار. حين اعترض الموظف بأنهم كانوا قد توقفوا

عن الإبعاد إلى سيبيريا في ذلك الوقت، اكتفى الرجل الصغير بالابتسام وهو ينظر إلى عقب سيجارته التي يمسكها بين أصابعه، ولم يساور الحاكم الشك، فهو يعرف عن ذلك أكثر منه بكثير. الحق يقال، لم يكن بيالي بالأمر، الشيء الوحيد الذي يهمه، أن يعرف فيما إذا كان قادرا على تعليم الفرنسية لابنته أو لا. - الفرنسية، سيدي الحاكم، إنها لغتي الأم. كانت أمي ابنة شيوعي من «كليشي لاغارين»، تزوج من مناضلة يوغسلافية من أصل كرواتي. ذهبوا ليستقروا في زغرب حيث ولدت أمي. في الثامنة عشرة من عمرها، تزوجت من شاب قادم من شمال يوغسلافيا وبعد الحرب..

- أعرف، جاء إلى الاتحاد السوفييتي، إلخ. ولكن، قل لي بالتحديد: الفرنسية، هل ستكون قادرا على تعليمها؟ - أنا؟ ولكن، هذا كأنك تطلب من مايكل أنجلو أن يعيد طلاء مطبخك. أكتب قصائد بالفرنسية، أحلم بالفرنسية، أغني بالفرنسية، إذا أردت..

كان متقدما على طرف كرسيه، منتفخ الصدر، فظنَّ الحاكم أنه سوف يشرع بإنشاد شيء ما مثل «المارسيالية».

- اسكت! واكتفِ بالرد على أسئلتني؛ هل بإمكانك تعليم الفرنسية، نعم أو لا؟

- نعم، متى ترغب أن تبدأ؟

- ليس لي، لابنتي، أقرَّ الحاكم وهو يخفض بصره.

ابتسم الرجل الصغير ابتسامة هازئة، كاد الحاكم أن يذعر منها، ولكن الألوان كان قد فات عن التراجع. قدِّمت له كو-مين في اليوم التالي.

توجب في البداية الانصياع لمطالباته الأولى. أسكنوه في مبنى الخدم، لكن كان لديه غرفته الخاصة. طلب ملابس ملائمة «على الطراز الأوروبي»، أعاد الحاكم إصلاح إحدى بدلاته التي يلبسها للاجتماعات الرئاسية.

حين شاهدته كو - مين للمرة الأولى، مستحما ومعطرا، ومسرّحا شعره بعناية، يرتدي بأناقة طليقة البدة التي يغلق أزوارها أعضاء الحزب الشيوعي الروسي دوما حتى الأعلى، لم تشك للحظة واحدة إلا بأنه فرنسي. أثناء المحادثة الأولى، بحضور والدها، بدا جديا إلى حد التطرف، لا بل سلطويا. وضع على الفور قواعد صارمة لتعلم لغة.. شرح، يجب مراعاة المراحل وعدم محاولة العمل بسرعة كبيرة. لا شيء أكثر ضررا من دراسة غير منتظمة. فرض على تلميذته بإصرار أن تستخدم حصريا المستندات التي سيسلمها إياها عند كل درس. وعندما يحين الوقت، سوف يزودها بالكتب والصحف الفرنسية. بانتظار ذلك، لا يجدر بها أن تحاول التزود بها تحت أية ذريعة كانت. كان الحاكم الذي ينظر إلى الفرنسيين كأناس لا نفع منهم، مغرورين وشهوانيين، توجب عليه أن يقبل بأن هذا الأستاذ يعرف عمله. أكدّ بأنه سوف يسهر شخصا على ألا تصل إلى ابنته أية دعاية غريبة من دون علم أستاذها.

- أشدد بشكل خاص على المحادثة، كما أننا سوف نبدأ في الحال.. «اسمي أندريه».

كانت تلك أولى الكلمات التي تسمعها كو-مين بالفرنسية، واضطربت من جرّائها.

- اسمي كو - مين، تفوهت بحذر كمن يمشي حافي القدمين فوق درب منثور بالحجارة القاطعة.

جعلها أندريه تعيد العبارة عشر مرات إلى أن لفظتها دون خطأ. ختم بالقول بأنها تتقدم بسرعة. بكت الصبية من الفرحة طوال الليل.

على الرغم من النفور الذي كان يشعر به تجاه المهاجر، كان والدها ممتناً له لأنه أعاد الفرحة إلى ابنته، استجاب بسرعة إلى كل طلباته، تركزت في بداية الأمر على دروسه. صار بوسعه، ودون أية رقابة، مراسلة مكتبة في بودابست بإمكانها أن ترسل إليه لوازم التدريس الآتية من الغرب. كانت هنغاريا بلدا من الكتلة السوفييتية، وبالنتيجة مراقبة جدا. قَدَّر الحاكم أن باستطاعته الموافقة. فيما بعد، استأثر أندريه لنفسه بسبعة نادرة، آلة تصوير ناسخة، كان يحضّر بها الكتيبات الصغيرة المأخوذة عن كتب وصحف يحتفظ بها تحت القفل، وبها كانت تلميذته تدرس.

غير أنه كلما ازداد تقدم كو-مين، بدا أستاذها واثقا من نفسه أكثر. طالب بالسكن أقرب إليها، خُصصت له غرفة في الطابق نفسه، في طرف الجناح الذي كانت تشغله، تطل نافذتها على قمم الثلوج التي ترى في جنوب العاصمة.

عندما أتى الربيع، انتقلا إلى دراسة الطبيعة ومفرداتها. طالب أندريه بسيارة، كان يقودها بنفسه وهو يدخن والنوافذ مفتوحة على آخرها. بمظهره العايب، وعينييه البرّاقتين، ولهافته الدائمة المرفوعة على مقبضة عنبرية بلون الذهب، كان يبدو أنيقا.

في تلك الفترة تقريبا، كان استسلام كو-مين له، الحق يقال، كانت منذ اللحظة الأولى مستعدة لذلك، حيث إن الإعجاب الذي تكنّه له كلّي لا تضع حدودا له. ما كانت تسميه «فرنسيا» ليس لغة فقط، إنما حرية، نعمة، باختصار، حضارة تصبو لتسلم نفسها إليها بكليتها. لم يعد بوسعها أن تحلم بتلقين أجمل في الحياة من الانفتاح دفعة واحدة على رجل وعلى الثقافة التي يمثلها. قدّمت الطبيعة إطارا للعناق الأول، بعيدا عن جواسيس والدها، فوق تلّ يطل على المدينة.

مرت ثلاث سنوات على هذا النحو، مليئة بالحب والدراسة، صارت كو - مين تتحدث الآن بطلاقة، وكانت تحلم باستمرار، لكن أحلامها بدأت تتخذ مذ ذاك أشكالا محسوسة أكثر وأشبه بالمشاريع. أسرّت لأندرية بأنها ربما ستنمکن من إقناع والدها بأن يسمح لهما بالسفر إلى فرنسا، بمناسبة زيارة رسمية على سبيل المثال، وما إن يصلا إلى هناك فسيتركونه دون إعلامه. كانت قد ادخرت بحجة جمع القطع الذهبية حصالة صغيرة، منذ الثامنة من عمرها، خبأت هذا المال في صندوق من خشب الأرز. في إحدى الأمسيات، أرتها لأندرية، كانت سعيدة من رؤية عينيه تبرقان.

- هل تعتقد أن هذا كاف لشراء شقة في باريس؟

أكّد لها أندرية أنها كافية، فقفزت إلى عنقه. بعد حين، أعلن لها بأنه فكر مليا بأن الرحيل سويا سوف يكون مستحيلا مع الأخذ بالحسبان المراقبة التي كانا تحتها. كان يستحسن أن يعبر إلى الغرب هو أولا، ويحضّر كل شيء كي تتمكن من ملاقاته. كان ذلك في بداية ربيع سنتهما الرابعة. سهّل الحاكم قدر استطاعته

رحيل الأستاذ، وهو مسرور لرؤيته يغادر أخيرا. أمّن له أوراقا بولونية، وتأشيرة دخول إلى ألمانيا الفيدرالية، ومنها سيتمكن فيما بعد من الرحيل إلى فرنسا. أما بالنسبة إلى كو-مين، فقد أعطت صندوقها الأرزي إلى أندريه كي يشتري بيتهما المستقبلي؛ رفض في البداية، ثم -تحت إلحاحها- انتهى به الأمر إلى القبول. بكت بعد رحيله لثلاثة أيام دون أن تخرج من غرفتها، ثم كففت دموعها وانتظرت. كانت اللغة الفرنسية رفيقتها الوحيدة، تقرأ وتعيد قراءة الكتيبات التي صنعها لها أندريه، كل درس يحملها إلى مرحلة مختلفة من حبهما. كانت تلبس على الطراز الفرنسي، وتدخن جاهدة تقليد خفة أندريه وترفعه. مضت الشهور، لم يأت، ولم تتلق أي خبر قط.

استحال عليها التصديق بأنه قد هجرها، كانت مقتنعة بأن الحاكم يحول دون وصول رسائل أندريه، حدثت مشادات مريضة بين الوالد وابنته. ذات يوم، وبعد أن أنهكته اتهاماتها، انتهى به الأمر إلى القول لها بأنه بعد رحيله بوقت قصير، تلقى عن الأستاذ المزعوم تقريراً دامغا من الشرطة.

- إنه سارق ومحتال، حكم عليه تحت هويات مختلفة بسبب الغش باللعب والنصب، يبدو أنه لدى رحيله من هنا، فرّ إلى جنوب أفريقيا حيث يعيش الآن مع زوجتين. عندما رأيت التقرير، تساءلت أيضاً فيما إذا كان يتكلم الفرنسية.

استقبلت كو - مين هذه الحقائق بدهشة عالية، أندريه لا يتحدث الفرنسية! يا للمفرورين المساكين، يا للبرابرة الصغار! كانوا ينهالون على رجل لا يصلون إلى كاحله، ليس لديهم أية فكرة عن حماسيته وثقافته!

كانت القطيعة فورية وكلية ما بين الابنة والأب، تألم من جراء ذلك أشد الألم، قام بجهود حثيثة كي يتقرب منها، دون جدوى. وبما أن المصائب لا تصل فرادى أبداً، كان على الرجل المسكين أن يجابه اضطرابات روسيا التي تهدد سلطته. لحسن الحظ، كان يبشر ذلك الشغب بجهود لصالحه على الأغلب. لقاء بهلوانات سياسية دقيقة، نجح بصون سلطته، وكانت الفرصة في أوجها، حتى إنه نجح بتجسيد ضرورة الاستقلال عن روسيا. بالنسبة إلى ابنته، ترى تلك الأحداث فرصة لا أمل فيها بإمكانية الرحيل. كانت الستارة الحديدية ترتفع ببطء، كانت واحدة من أوائل الأشخاص في آسيا الوسطى الذين استقادوا من السماح بالسفر إلى فرنسا، وها هي الآن في باريس منذ ثلاثة أيام.

لم يكن لديها أدنى فكرة عن مكان أندريه. والحق يقال، بما أن الوقت قد مضى دون أن تتمكن من أن ترسل له أخباراً، لم تعد تأمل شيئاً، ولكن أقل ما يمكن، كانت راضية لأنها انغمست أخيراً في الثقافة التي قدمها لها.. من هنا كان سبب ارتباكها الجسيم. لم تكن تفهم شيئاً ولا أحد يفهمها؛ كانت تعيش كابوساً. منهكة من اعترافها، تكومت الكيرغستانية المسكينة في مقعدها، خيم صمت ثقيل فوق الغرفة المنكوبة.

- أتساءل حقاً أي لغة علمها هذا الحقيق، ختم السيد بول وهو يهزّ رأسه بأسى.

أثناء تلك الحكاية الطويلة، كان قد التأم جمع صغير دون صوت عند مدخل الغرفة؛ شرطيان، ثلاثة مسعفين نفسانيين، وفي الصف الأول، رادعة الكل، فيرجيني فتاة الغرفة.

- لا أفهم ما الذي يجري، تدخل المفتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل اللحظة للدخول إلى مسرح القضية. هذه السيدة تعلمت الفرنسية، وماذا بعد؟

- بعد هذا، إنها تتكلم شيئاً آخر. اسمعوا!

عن طريق ترجمة الروسية، طلب من كو-مين أن تقول بضع كلمات «بالفرنسية»، هذرت الفتاة المسكينة من دون اقتناع مقطعا طويلا لم يفهم منه الشرطي شيئاً.

- أنا من بروتون، وكل ما أستطيع قوله لك، هذه ليست لغة سلتية. أنت ماذا تقول يا دانييل؟

كان حارس الأمن الآخر من جزر الأنتيل. حك رأسه تحت قبعته.
- وليست لغة الكريول أيضا.

لم تعد كو - مين ظاهريا تأمل شيئاً. استمرت اندفاعاتها بمونولوج طويل بلهجة محزنة، تلقيه بصوت مسرحي. لا شك أنها كانت تستعيد الأوقات السعيدة التي كانت تتحدث فيها تلك اللغة مع حبيبها ولا يجرؤ أحد على مقاطعتها.

فجأة ومن آخر المدخل وصل همس، كان أحدهم يحاول التقدم، إنه ثالث مسعف، شاب بالرداء الأبيض، على صدره مشبوك بطاقة صغيرة كتب عليها «متدرب». كان محتجزا في الصف الثاني، تتحنج، وبدأ يتكلم بصوت مكتوم، جمدت الكيرغستانية، ومثل طير في الغابة يميز من بعيد رجرجات سلالة جنسه، أصاغت السمع وقد استثار وجهها بالأمل.. كانت تلك اللغة نفسها.

رأى الشاب الطريق يفتح أمامه دفعة واحدة، وتقدم حتى وسط الغرفة. كانت قامته قصيرة جدا، وبدأ شعره الأشقر

يخفّ، لكن سلوكه كان واثقا يعطي انطبعا بالوقاحة والاستهزاء بالحياة.

صار الحوار جزلا الآن بين كو-مين وبينه. جرت محادثة حقيقية لا يمكن فهمها بشكل كامل من قبل الآخرين، ولكن، من نبرتهما، كانت تدلّ على اللقاء السعيد. استسلم المدير متأثرا بالمشهد المسرحي المبالغ، أما المفتش فكان أقلّ تساهلا.

- هل تسمح بالقول أخيرا أية لغة تحدثها بها؟

توقف المسعف الشاب، وقال بلهجة الضواحي الفرنسية:

- الهنغارية، تتحدث بها بشكل جيد جدا.

- وأنت، لماذا تتحدث بها؟ سأل الشرطي منقادا لمهنته لدى

رؤية مشتبهين في مكان واحد.

- والديّ من يوغسلافيا، تنتمي أمي إلى الأقلية الهنغارية

الفويشودين، علمتني لغتها حين كنت صغيرا ولا أزال أتحدث بها في المنزل.

هكذا، ليس فقط لم يعلم الأستاذ المزعوم الفرنسية

لكو - مين، بل علمها، عوضا عن ذلك، اللغة الأوروبية الوحيدة

التي لا تشبه أية لغة أخرى. ولن تنفعها على الإطلاق كي تتحدث

الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية الحقيقية. جففت كو - مين

دموعها ونهضت، توارت في غرفة الحمام، صاحت عبر الباب

شيئا ما بالهنغارية، ردّ المسعف ضاحكا، كانت لا تزال في الداخل

وهو مستند إلى الباب، استمر حوارهما المليء بالمرح لوقت

طويل، فجأة، فتح الباب وخرجت كو - مين، كان يصعب التعرف

إليها، شعرها مسرّج جيدا، تبرّجت بدوق، بدت جميلة تقريبا،

ألقت على الغرفة نظرة متعالية، أوشكتنا على الظن بأن الشرطي والمدير هما من ضايقاها.

قالت كلمة ترجمها المسعف.

- سوف يدفع والدها ثمن كل هذا، ليوضع في حسابها، وتريد أن تنقل أغراضها إلى غرفة أخرى.

- سيكون ذلك، قال السيد بول.

ثم تقدم نحو الشاب وأخذه جانبا.

- الآن، عاد للتحدث بصوت منخفض، علينا حتما التكلم مع هذه الفتاة المسكينة، يجب فقا الدملة، وإلا فسوف يتكرر الأمر، وتدمر غرفتها الجديدة كما خربت هذه.

- ماذا تريد أن تقول لها؟

- ولكن.. يبدو لي أنه من واجبها أن تكون على بينة فيما يتعلق باللغة التي تتحدثها.

اقتربت كو-مين من الباب، نظرت ناحية الشاب وهي تقطب حاجبيها، ثم أشارت له بملاحظاتهما.

- هذا لا ينفع.. أظن، تمتم المسعف.

- لا ينفع!

أمسك السيد بول بذراع الصبي، وقاده إلى الجانب قليلا، نحو النافذة.

- لماذا هذا لا ينفع؟ أية تفسيرات قدمت لها؟

- اهدأ سيدي! لا شيء خطير.

- أجبني.

عدّل الشاب وقفته ورمش بعينه.

- قلت لك أنا ابنٌ لهاجرين، وصلت إلى هنا حين كان عمري

سبع سنوات، أعرف ماذا يعني أن يكون المرء غريبا في بلد.

- ادخل في الموضوع مباشرة.

- الموضوع، هو أن اللغة لا تصنع كل شيء، هل ترى، قد تكون

تتحدث بها بطلاقة وتكون مبعدا.

- أوافقك الرأي، قال السيد بول على مضض.

لم يكن يحبذ كثيرا هذه الاتهامات للضيافة الفرنسية. هل هذا خطؤه، في نهاية الأمر، فيما لو ولد بعض الناس في مكان آخر؟ لكن الشاب بدد كل غيظه بإطلاقه ضحكة ملؤها الجراءة والشباب.

- أردت القول ببساطة إنه يمكن للمرء أن يكون مستبعدا هنا وهو يتحدث اللغة و.. ويمكن أن يشعر بأحسن حال دون معرفتها!

كانت كو - مين بجانب الباب قد عيل صبرها.

- تريد هذه الفتاة أن تتحدث اللغة الفرنسية، عاد وقال متوجها إلى المدير، وهو يحدق فيه هذه المرة بجدية، لقد بذلت جهدا كي تتعلمها، يجب ألا نحزنها، سينتهي بها الأمر ذات يوم وتفهم الوضع، أما الآن، دعها تستمتع بسعادتها.

اقترب السيد بول من محدثه، وتقارب وجهاهما حد الملامسة، تلاقت نظراتهما كشفرتين.

- ماذا قلت لها؟

- الحقيقة.

تقبل الشاب نظرة المدير الشريرة للحظة، ثم انفجر ضاحكا، وقال بصوت عال متخذا رجال الشرطة شهودا عليه.

- ماذا تريد، لم يعد هناك فرنسية حقيقية في أيامنا هذه!

هذا مؤسف حقاً، لم تكن محظوظة، لقد وقعت عند وصولها
في أيدي أناس، أنت، فتاة الغرفة، هؤلاء السادة من الشرطة،
تحدثون مزيجاً مريعاً، وما عدتم تفهمون اللغة الكلاسيكية التي
علموها إياها.

- لحسن الحظ، أنت هنا!

- في خدمتك! قال الشاب بتعجب وهو يقلّد تحية من عهد
لويس الرابع عشر. الآن، اسمح لي، يجب أن أتركك، علي أن
أريها.. بلدي.

ذهب وانضم إلى كو-مين عند الباب مبعداً بتهذيب الجمع
الصغير الذي كان يحتشد في مدخل الغرفة، شقاً طريقاً نحو
الرواق، لاح للمدير أنه يشاهد كو - مين تمسك الشاب بيده.

حل صمت مزعج داخل الغرفة، لم يستوعب رجال الشرطة
تماماً ما الذي حدث للتو. كانت فيرجيني فتاة الغرفة تتباكى وهي
تعيد ترتيب الغرفة عن غير اقتناع. بدت الدبلوماسية الروسية
التي كان يرتجف كل جسدها مثل شخص مذعور شاهد شيئاً
لا يجدر رؤيته ويخشى من محاكمة ذكرياته. صاحت بعض
الكلمات بالألمانية التي تفتقر إلى النحو.

- أنا واجبي حالاً أن أرسل رسالة سفارة؛ الأب يريد أخباراً
عن ابنته، ماذا أقول أنا؟ ماذا؟

في تلك اللحظة، ارتأى السيد بول أن الوقت قد حان كي
يكون فوق الحدث. قال بصوت حازم:

- قولي له ببساطة، سيدتي.. إن ابنته سعيدة في فرنسا.

الغارقون

حدث اكتشاف في صباح باكر؛ كنت أتخيل هذه اللحظة منذ وقت طويل، لكنني كنت أجهل أي شكل سيتخذ الحدث، ولأنني كنت أخشاه، كنت بانتظاره.

في كل صباح، ومنذ أكثر من أربعين عاما، أخرج من بيتي كي أسبح في المحيط. أذهب إلى هناك دائما عند مطلع الفجر الذي يبزغ تحت مرتفعتا في الساعة نفسها تقريبا كل العام. غادرت المنزل مدثرة بمئزر أزرق وأبيض. أمام منزلنا الشاطئ صخري، يجدر السير خمسين مترا لبلوغ الخليج الرملي الصغير الذي منح اسمه لمكاننا؛ خليج القرصان. ساعة وصولي إلى حافة المياه، تكون الشمس بالكاد قد لامست الأفق، ترتفع أشجار النخيل وكل الغطاء النباتي في المنطقة ببطء نحو السماء، بينما الغيوم، حين يكون هناك غيوم، وهي المتعبة من السعي وراء القمر طوال الليل، تستلقي فوق الأفق وتتحمص على نار الشمس. ألقيت بمئزري فوق الرمال ومشيت عارية حتى المياه، في تلك اللحظة بالتحديد، رأيته.

لاح لي من ظهره، فلقد كان يتطلع إلى البحر، أقصر مني بقليل، كتفاه عريضان وذراعااه مفتوحان، تراجعت من الخوف، كان يصعب تمييز لونه وهو بعكس الضوء، كان خيالا أسود

مرتسما فوق الأفق المتوهج فحسب. بعد مرور الخشية الأولى، دنوت ببطء متعمقة بدوري داخل البحر، حتى إنني تجاوزته كي أراه من الأمام. كلما ازداد اكتشافي له، ازداد يقيني بأنه ليس سوى تمثال، الاضطراب فوق العادي للحظة الأولى حل محله عندئذ خوف بشري أكثر تعقلا لم يتوقف عن التعمق منذ ذلك الحين.

هل أجزؤ على القول بأنه جميل رغم كل شيء؟ المرفقان مثيان واليدان مضمومتان بأصابعهما الممدودة في وضع الصلاة، الرأس جلف للغاية، نتعرف فورا على الرواسم التقليدية: العُمرَة المدببة، الأنف الأفطس، العينين اللوزيتين الكبيرتين، كان ذلك بالتأكيد الإله شيقا، إنما شيقا شعبي، عادم الجمال، لا يذكر سوى بالخرافات، المادة التي نحت منها لم تساعد الفنان بالتأكيد على صنع التفاصيل، كانت من تلك المواد البركانية الرمادية التي تشكل أرض جزيرتنا، كنت أفضل لو أن المنحوتة صنعت من الخشب، من المعدن، ما أدراني! هي المأخوذة من الحمم البركانية، كانت تبدو كأنها انبعاث لجزيرتنا الصغيرة، مما خفف من سميتها الغريبة غير الشرعية، والمثيرة للاشمئزاز.

ارتفعت الشمس بسرعة، كنت لا أزال أتأمل الآلهة الهندوسية التي حطت هنا أثناء الليل، عندما أضاء الساحل كله. كان يُرى ناحية الجنوب هياج الموج يطير زبده عند رأس «العارقين»، وداخل اليابسة كان نقش من الظلال ينمق اللون الأخضر البراق للغطاء النباتي. ربما كانت تختبئ فيه أعين فضولية، كانت تلك ساعة استعادة مئزري، تدثرت به وقفلت راجعة، قمت بذلك وأنا أرتعد، متجمدة كما في أيام الشتاء الجنوبي، عندما تلفح رياح

باردة آتية من القطب الجنوبي. مع هذا، لم أكن قد تبللت تماما. وصلت إلى البيت، كان والدي قد بناه لي في سنوات الستينيات وأنا في العاشرة من عمري. كان بعيد النظر، إنها فيلا بسيطة من طابق واحد، واجهاتها الزجاجية مفتوحة على آخرها دائما، يعبر الهواء الغرف محملا ببعض الطراوة، حتى في أشد الأيام قيظا؛ بحسب اتجاهه، يكون إما معطرا برذاذ البحر أو مضعما بغبار طلع الداخل. حول هذا البيت، كان كل شيء جامحا، البحر الذي يضرب صخور الشاطئ، الشمس التي تسحقنا طوال العام، والحرارة الرطبة.. مع هذا، في هذا المكان الهندسي، حيث تلغى كل القوى المتضاربة، يبلغ الهدوء كثافة لا مثيل لها. الأجدري أن أقول، كانت تبلغ، إذ إنه من الآن فصاعدا، كان الهدوء هنا.

في الأيام العادية، أذهب إلى المطبخ المفتوح على كل الجهات في الصالة والشرفة، أشرب القهوة بمفردي، وأدع إثارة السباحة تذهب عني. بعد ذلك، أذهب لإيقاظ زوجي من أجل الفطور؛ هو فرنسي، ولد في أوباني، سبح في الخلجان خلال طفولته، ولكن لهذا السبب، لا يعرف ما تعنيه الجزيرة.

أحتفظ بذكرى واضحة عن اليوم الأول الذي أحسست فيه بشكل جسدي ما كانت عليه جزيرتنا المسورة، كان والدي قد هيا السيارة، سيمكا فيرساي كبيرة، جوانبها مطعمة بالكروم ومقاعدھا من الجلد الصناعي الأزرق، أضعنا إلى داخلها، أخي وأختي وأنا، كان ذلك في وضع النهار؛ كنا ذاهبين أخيرا للقيام بدورة كاملة في جزيرتنا، اتجهنا صوب الشمال عبر طرقات صغيرة تتلوى بين حقول القصب. من رؤوس إلى خلجان، أمضينا النهار نتفرج على كل شيء. وفي المساء، دون أن نستدير قط

إلى الخلف، ألفينا أنفسنا في منزلنا. صارت براهين المسألة بالنسبة إلينا معروفة؛ نحن نعيش في مكان مغلق، محاط بالمياه. منذ ذلك اليوم، لم نتوقف عن النظر إلى البحر وإلى جزيرتنا بتأويات عنيفة تتراوح بين الحب والكراهة.

نختق حيناً من هذا السجن المائي، نكره البحر الذي يفصلنا عن العالم. إنه الزمن الذي نريد فيه السفر ومغادرة الجزيرة وملاقة باقي البشر، مررنا جميعاً بهذا. وحيناً آخر، نرى في البحر حامياً لنا يحفظنا من شرور الخارج. تأرجح كل واحد منا لزمن طويل ما بين الموقفين. فيما بعد، شيئاً فشيئاً، تباطأ رقص الساعة، وذات يوم، توقف. من كانوا في البعيد عادوا، ومن بقوا شكروا السماء؛ إنها السعادة التي بلغت منذ عشرين سنة، وهي التي تحطمت هذا الصباح.

دخل زوجي إلى المطبخ دون أن أسمع، ألفاني واقفة، ويدي متدليتان، عينا شاردتان في التيه ناحية الخليج، انتفضت حين قبّلتني.

إيريك رجل لطيف، تزوجنا منذ أكثر من ربع قرن، ورحل أولادنا كلهم للدراسة في الخارج. إنه الإنسان الوحيد الذي يفهمني دون الحاجة إلى التفوه بكلمة، سأكون مصيبة أكثر إذا قلت بأنه يعرفني، حتى ولو كان يدرك مشاعري وهمومي ورغباتي، لكنني على قناعة بأنه لا يحس بالواقع مثلي. تمثل الجزيرة بالنسبة إليه جزءاً من عالم واسع قرّر أن يجوبه حين كان في العشرين من عمره، طاف المحيطات، وبالمصادفة التقى بالحب؛ أي أنا. استقر في الجزيرة، وأنشأ فيها عملاً. في حقيقة الأمر، كان بإمكانه أن يكون في مكان آخر، بينما أنا ليس

لي سوى هنا. وصلت عائلتي في القرن الثامن عشر، كان من بين أسلافي فرنسيون وإنجليز وهولنديون وبلاطقة، ولكن قبل كل شيء ما كان يميزهم هو قسم الجزيرة الذي استقروا فيه. بالنسبة لشخص يعيش على الساحل الغربي، كان سكان الشرق والهضاب الوسطى غرباء حقيقيين.

شعر إيريك في الحال بأن هناك شيئاً ليس على ما يرام. أنا التي كنت أنشط في الصباح، كنت كالمشلولة، لدرجة لم أقو معها على أن أشرح له ما حصل، قلت له ببساطة: «اذهب إلى الخليج». لبس سروالا قصيرا وذهب.

مهما كان قرارنا في ذلك اليوم، فقد فات الأوان للشروع بأي شيء. ذهبت لأجلس في الصالة معطية ظهري للبحر، عاد إيريك في تلك اللحظة.

- متى فعلوا ذلك؟ صاح.

كان يبدو غاضبا، كما يحدث عادة، شعرت بسوء تفاهم يتسلل خلصة بيننا، كنا نتحدث عن الحدث نفسه، لكنني كنت متأكدة بأنه لا يعطيه المعنى ذاته مثلي. بالنسبة إليه وصول هذا التمثال هو نزاع جيران، قضية حماية مواقع، مثلما يمكن أن يحدث فجأة على ساحل «الكوت دازور»، أو في أي مكان آخر. هل كان يفهم أن الأمر بالنسبة لي كان بكل بساطة نهاية العالم؟

إن كان علي أن أكون أكثر دقة، يجدر بي القول إن هذه نهاية النهاية، لأنني في الحقيقة، لو قيّمت حياتي على هذه الجزيرة وحتى حيوات أسلافي، لم يفارقنا الشعور التدريجي للزوال، وهو إحدى نتائج نهاية حيزنا. في كل فترة من التاريخ حين كانت تمتلئ شيئاً فشيئاً، وتستقبل السكان الجدد، كانت تتسارع

اللحظة التي سينتهي فيها كل شيء. يصعب فهم هذا على القادمين من الياينة، الخلو بالنسبة إلينا هو الطبيعة والغنى والحياة، والامتلاء هو استفاد كل شيء والفقر والموت.

- نظرت جيدا، (أردف إيريك وهو ينضم لي في الصالة ومعه فنجانا قهوة) وُضع في الرمال مباشرة.

أدركت حالا ما ينوي فعله. خطرت على بالنا الفكرة نفسها في ثاينا خواطرنا المختلفة بالتأكيد.

- هل تظن بأنه ثقيل؟ سألت.

- لا، إنه من التراب البركاني الفقاعي، اثنان سيكونان كافيين.

- أنقوم بذلك الليلة؟

ابتسم لي. نهضت وجلست إلى جانبه، وأحطت عنقه بذراعي، لم نعد شبابا، لا بل بوسمي القول إننا نكبر في السن. يتخذ الحب بيننا طبيعة مؤلة تقريبا أجمل من فترة شبابنا. لم يعد ما نتقاسمه الصحة والجمال والقوة إنما متاعب العمر، القلق من الزمن القادم، والذكريات الجميلة والبشعة التي صاغت حياتنا. الأسطورة الكبرى على هذه الجزيرة هي أسطورة «بول وفيرجيني»، لا يمكن للمرء أن يكون عاشقا هنا دون أن يفكر بهما. كنا نريد نسيانهما، لكن نصبهما هناك على بعد بضعة عشرات الأمتار من منزلنا كان يذكرنا بهما. أشاء الليالي العاصفة في موسم الأعاصير، كنت أضم إيريك لي، كان كل شيء يقطع في المنزل، تعبهر الرياح صافرة، وسعف النخيل المقتلعة تضرب الشرفة، كنت أنخيل نفسي داخل السفينة مع بول وأنا فيرجيني، أشاركهما المشاعر، كل شيء قوي في استحضار ذكرى العاصفة، لكل شيء مذاق لا نجده في أي مكان آخر على الإطلاق: الخوف

من الموت، الطعم المر لرداذ البحر، العطور اللاذعة الآتية من اليباسة.. أهل هنا، البيض هم جميعا أولاد غريق.

ابتداء من اللحظة التي اتخذنا فيها قرارنا، سارت الأمور نحو الأفضل. لم أظن قط بأن يوما يمكن أن يكون بهذا الطول، تناولنا الغداء على الشرفة وانشغل ذهني بتحضير وجبة كاري معقدة.

عند الخليج كان هناك قلة من الناس كالعادة ابتداء من منتصف النهار، لا يوجد قرية قريبة من منزلنا، يلزم السير عدة كيلومترات للوصول إلى هنا، نحن بمنأى عن التجمعات الكبرى. عرفت في الماضي هذا المكان الخالي تماما طوال العام. حين كان والدي يأخذنا إليه، كان يحدث أحيانا أن تكون عائلة كريولية أخرى قد أنتها الفكرة ذاتها، كنا نعرف حتما ماذا يحصل. يرفع الأسياذ قبعاتهم، يتبادلون بضع كلمات، يشدون على صداراتهم، ويذهب كل منهم ليُجلس زمرة أولاده في الطرف الآخر من الشاطئ.

يقع منزلنا العائلي على مسافة عدة كيلومترات من هنا. بعد موت والدينا، ورثته أختي، إنه منزل كبير على أعمدة. صهري وهو صياد كبير، وضع تذكارات غنائه داخل القبو مع مجموعة أسلحته. توجب عليهم تصفيح الأبواب ووضع أجهزة إنذار دفعة واحدة. عندما كنا صغارا لم يكن يفلق باب البيت قط. في الأيام التي كنا نذهب فيها إلى الشاطئ كنا نصطحب الجميع، من الطبّاخين حتى الخادّمات، ويبقى المنزل خاليا. يجدر القول اليوم إن الحديقة قد تقلصت وأضحت لا شيء تقريبا. تحيط المدينة بالبيت، في حين كان في ذلك الزمان في قلب الريف.

كيف يمكن الحديث عن هذا الماضي دون أن أبدو مقبلة
 تحن إلى الزمن الاستعماري؟ لا يمكننا اليوم أن نجد وصف
 هذا المجتمع الراقي والذي كان في الوقت نفسه يتكل فيه على
 عنف العبودية، كان مترفا وبريريا، ينقسم إلى طبقات اجتماعية
 حادة، ومع ذلك فيه مساواة، تضيق عليه آلاف القوانين والعادات
 لدرجة يستحيل معها الانتهاك، ومع ذلك كان أكثر حرية مما
 نحن عليه اليوم. ولادة مجتمع آخر جعلت ذلك الذي كان قبله
 لا يمكن فهمه.

بعد ولادة طفلنا الأخير، كانت لي محاولة لكتابة رواية عن
 هذه الفترة المغمورة، على طريقة «ذهب مع الريح»، توقفت
 بعد مئة صفحة، لا تزال في أحد الأدراج، لم تكن الصعوبة
 بالنسبة لي في الكتابة فقط؛ العقبة الحقيقية لاستذكار هذا
 العالم كانت بالحديث عنه بصيغة الماضي. إذا كان يمكن اعتباره
 قد اختفى، فنحن لهذا السبب لم نخرج منه، حين أقول نحن،
 أتحدث عن هؤلاء الذين هم مثلي، ولدوا فيه. كنت سسرا أنتمي
 إليه على الدوام، أعدنا بناء قدر المستطاع، انقلقنا على ذواتنا
 داخل أملاكنا، رفعنا جدران الأسوار. هربنا إلى الريف ثم إلى
 الساحل، في النهاية، أوقفنا المحيط. وها نحن في بيتنا المنعزل
 بمواجهة البحر. عندما نلتفت نحو الأفق، نمنح أنفسنا رفاهية
 التفكير بأن الجزيرة لم تتغير. أرجأنا الفرق فقط، ثم ذات يوم
 عند الفجر، أدركنا الواقع..

لئن كان زوجي متقاعدا، لكنه كان يتابع إدارة دكان صغير
 للإلكترونيات الخاصة بالملاحة البحرية للهواة، كانت مكاتبه
 عند مدخل العاصمة، توجب عليه الذهاب إلى هناك اليوم من

أجل اجتماعات، تركني وحيدة. عوضا عن التملل في المنزل، ذهبت إلى فندق كبير على بعد كيلومترات من منزلنا كي أتغدى فيه وأمرّ عند المزيّن. يقيم في هذه الأماكن سائحون لا يعرفون الجزيرة، ويكوّنون عنها فكرة من خلال الشركة التي تستقبلهم. كل شيء مصمم لكيلا يضطروا إلى الخروج. نجد في هذه الأماكن الخدمات الأكثر تنوعا، من صالات التدليك إلى المكتبات، مرورا بكل النشاطات الرياضية التي يمكن تخيلها. في الماضي كان يحدث أن أشرع بحديث مع السياح، لكن اليوم، جهلهم يثبط عزيمتي، يمكن أن أحتمل جهلهم للجزيرة، لكنهم يستبدلون الفضول بتأكيدات للفت في كتب الإرشاد السياحي. يتلون عليك المقطع الغنائي نفسه عن «التعايش المتناغم لكل الأعراق». والويل إذا اعترفنا بأننا ننتمي إلى طبقة المزارعين القديمة، يصيحون وهم يهزون رؤوسهم بمكر: «آه، نعم، الـ 2 ٪ من السكان، هؤلاء الذين يتعلقون بامتيازاتهم»، هذا إذا لم يسألك فيما إذا كان لا يزال لديك عبيد.

نعتبر بنظرهم نظاما يطلقون عليه حكما دون أي إجراء آخر. مع ذلك، لا يبدون متضايقين من كل نظام هذه الفنادق الذي يحاكي بدقة حياة بيوتنا في عصر الهيمنة العظيم. يشغل البيض فيها الوظائف الإدارية، الأفارقة بالأردية البيضاء ينظفون الغرف، الهنود الباسمون يؤمنون الخدمة، والصينيون في المطابخ، الشواطئ ممنوعة على السكان الأصليين، بعض الصيادين فقط في قواربهم التقليدية، وهم المسجلون حسب الأصول، يسمح لهم بالتحرك أمام المظلات الشمسية كي يضيفوا بعض الانطباع الريفي الملون فوق شاشة البحر اللازوردية.

لو أنني أوقفت أحد السياح الذين صادفتهم في ذلك اليوم في الفندق وشرحت له ما نحن مزمعون على القيام به لاستشاط غضبا. يوما بعد يوم، بول وفيرجيني هذان يغدوان أسوأ أعداء الفرقي الحقيقيين، سكان الجزر، أي نحن.

نحو الساعة الخامسة، التقيت وأنا في السيارة بسيل من رواد البحر الهنود العائدين من الشواطئ، يقفلون راجعين إلى داخل الأراضي. حين وصلت إلى البيت، كان الفسق يتهاى، مناظر المغيب على هذه الجزيرة ذائعة الصيت لجمالها بحق، لشدة ما أحب الفجر، برذاذ بحره الصق، ووعده بيوم جديد، هذا الشعور بمعاودة رؤية الشمس نقية بعد غوصها الليلي في المياه، أرى في الفسق مسرحية تهرجية مبالغا فيها. أمقت اللون الأحمر، لا يوجد عندنا زهرة واحدة بهذا اللون، ولا حتى زهرة الخيمية. بينما كانت الشمس تغيب، ذهبت أخذ حماما وأغيّر ملابسي، عاد زوجي في هذا الوقت، هو أيضا خلع ملابسه المخصصة للمدينة كي يلبس من جديد لباسا ملائما للمهمة التي سنبدؤها؛ سروال جينز أسود، بلوزة داكنة وخفّ رياضي في قدميه.

- راجعت التقويم القمري، صاح من خلال باب الحمام.

- وماذا؟

- سوف تكون الليلة مظلمة حتى الثانية صباحا.

- مثالي!

كنا مقدمين، للمرة الأولى منذ زمن طويل، على عمل جنائي، لا يوجد على الجزيرة وهي على هذه الحال اليوم مخالفة للبيض أسوأ من تلك التي كنا سنرتكبها. رغم ذلك، أو ربما بسبب ذلك، كان إيريك سعيدا، كنت أحب فيه هذه الطاقة وهذه الشجاعة

وهذا الحماس. حمل إلى العصاب الجزيري الحاذق القوة الخالصة والشديدة البساطة لشخص لديه أفكار ساذجة عن الخير والشر.

تناولنا غداء خفيفا ونحن نلقي بين الحين والآخر نظرات نحو الخليج. كانت الرياح خفيفة والبحر هادئا؛ مما سيسهل علينا المهمة كثيرا. شاهد إيريك الأخبار على التلفاز، رئيس الجزيرة، هندي بمظهر بريطاني يرأس اجتماعا في وسط البلاد، وسط الجمع المتجمهر أمامه كانت تزهو بقع السواري الحمراء. طلبت منه تغيير القناة بسبب اللون الأحمر.

في الساعة العاشرة، أخرج إيريك سيارة الـ 4x4، ليست السيارة الأكثر تكتما للقيادة ليلا، ولكن كان علينا التقدم أقرب ما يمكن إلى الشاطئ دون أن نفوص في الرمال. توصل إيريك بالرجوع للوراء إلى إيصالها نحو خمسة عشر مترا داخل المياه. انتظرنا وقتا في الظلام، كي نرى أننا لا نلمح ظللا مشبوهة؛ يبقى أحيانا خلال الليل عشاق أو سكارى، هذا المساء، لا شيء كان يتحرك.

عندئذ، خلعنا أحذيتنا ورفعنا أسفل سروالينا، دخلنا في المياه، وتقدمنا حتى التمثال. كان البحر دافئا وهادئا وفي الظلمة التامة، كان شيفا أيضا أكثر تأثيرا مما هو عليه في وضوح النهار، كان يبدو أكبر حجما. خشيت للوهلة الأولى أن يستحيل علينا انتزاعه، لكن إيريك كان قد أمسك به من كتفيه، مال التمثال دون مشقة، وها هو قد أصبح ممددا في المياه مثل جذع شجرة أو جثة.

- أمسكيه من قدميه. قال لي.

كانت الكتلة البركانية ثقيلة، إنما ليس للدرجة التي كنت أخشاهما، توجب رغم ذلك معاودة حملها عدة مسرات حتى السيارة. كان الرمل طريا ويجعلنا نتعثر، وكان إيريك قد انتزع المقعد الخلفي، وجعل المكان كافيا لنسطح التمثال فيه.

- ليس لدينا وقت لنضعه، هيا. همس.

عاودنا ركوب السيارة، اتخذنا طريق اليابسة ونحن صامتان ومضطربان من الحضور الأخرس للإله الممدد وراءنا. لدى الخروج من المنزل، يمر الطريق بداية عبر حقول قصب السكر، والتي كانت خالية بالطبع. كنت بين الفينة والأخرى ألقى نظرة على إيريك، كان يبقي شفاهه مطبقة ويشدّ على فكيه. حين يستعد لمجابهة خطر ما، كانت لديه ردة الفعل هذه مثل ثور صغير.

باغتتنا أولى المصاعب لدى دخولنا القرية الكبيرة التي نمت عند تقاطع الطريق بين الساحل والشارع الرئيس. حين كنت صغيرة، لم يكن هناك سوى كنيسة صغيرة يرتادها عمال الزراعة، ومشرب لبيع كحول القصب ومصلد إطارات.

غدت اليوم مدينة هندية؛ يمتد الطريق بين صفين متتاليين من الواجهات ذات طابق أو طابقين، مبان فقيرة متوازية السطوح عشوائية بشكل رهيب، بعض الجدران مطلية بألوان صارخة، وبعضها الآخر يغطيه بلاط الحمامات، وأخرى لا تزال متروكة عارية. يتوج كل البيوت حديد البناء، ينتصب عموديا مثل شعر واقف، إنه هناك تحسبا لتوسع مستقبلي لدى مجيء الأولاد الجدد.

نقع دائما في الفخ، عندما يكون كل شيء حول منزلنا مظلمًا

وخاليا، تكون القرية لا تزال تعج وتلتعج بكل الأنوار. يبدو أن الحركة لا تتوقف فيها أبدا، إنها إحدى مزايا الهنود اللاهثة، فهم لا يرتاحون على الإطلاق. رغم الوقت المتأخر، دخلنا وسط جمع متحرك.

ونحن نسير في شوارع القرية، كانت مضاءة بشدة بأضواء نيون الواجهات، أهملنا تغطية شيفا، ولو - لسوء الحظ - كان علينا التوقف وقام أحد المارة بإلقاء نظرة على السيارة لتمكن من لمح التمثال بسهولة!

لحسن الحظ، عبرنا القرية دون أية حادثة تذكر. على نور آخر مصباح، لاحظت جبهة إيريك تقطر عرقا على الرغم من أن الليلة لم تكن حارّة.

على الطريق الرئيس الذي ندعوه هنا الدائري لأنه يلف الجزيرة، كانت السيارة المندفعة بأقصى سرعة تضجّ بشكل خطير. عبرنا قرى أخرى دون تباطؤ، كانت إحداها تنتهي ببناء بيتوني متوازي السطوح يعلوه صليب كبير؛ معبد لوثري، «أخوة اليوم الأخير». رمقني إيريك بنظرة وابتسم، كنا نمزح دائما بخصوص هذه الكنيسة، كنت أقول له إننا نحن أخوة اليوم الأخير، آخر أحفاد أول الواصلين، ولهم سيكون الامتياز المؤسف بوضع حد لتلك الإقامة في الفردوس لثلاثة قرون.

كان إيريك يسخر من نظرتي إلى العالم، على عكس نظرة النصراري. «بالنسبة إليك، كان يقول لي، الأرض أزلية والفردوس هو الذي سينتهي». لم يكن مخطئا كليا، لا بل بإمكاننا استخدام هذه الاستعارة، هناك في الفردوس ارتكبنا ما نسميه الخطيئة الأصلية، أعني العبودية. لم يكن كل من بول وفيرجيني ليتمكننا

من إنجاب مجتمع البيض الناجح الذي هيمن على الجزيرة دون اللجوء إلى هذه الجريمة. لو قارنا بين غرقهما وقصة الخلق، يجدر بنا أن نعلم بأن الله لم يضع على هذه الأرض الجزيرة مغلوقين، رجلا وامرأة، بل ثلاثة، وكان ثالثهما عبدا. التناغم والسلام والازدهار أشياء ميزت تلك الحقبة الذهبية التي كانت تضم جانبها مخفيا بعناية. لم يتوقف هذا الجزء المظلم عن التنامي ومزاحمة نورنا. لعالم الرقيق دائما وجهان: الوجه الأمومي المألوف واللطيف لمربيائنا وطباختنا ومديرات المنزل، ووجهه عنيف وخطير للعبيد الفارين، للثورات الدامية والإدانة العالمية. في نهاية الأمر، استبدلنا العبودية بالعمل الحر الذي بقي بائسا على الدوام، استحضرننا صينيين، ماليين، وهنود البحار، الذين كان عليهم أن يحلّوا محل الآخرين في النهاية، عادت الحياة بأجمل ما يكون.

ولدتُ في آخر الأزمنة لعصر الاحتفالات هذا، كنا نذهب بعربة صغيرة من بيت لآخر، شباب غير مبالين، أغنياء، جميلون وبيض. كنا أسايادا، وفي العالم المنتظم الذي نسوده كان كل في موقعه، لم تكن الطبقات الاجتماعية تختلط. خارج طبقتنا لا شيء يعني. كان الهنود في الحقول أو في القرى، ولكن لا أحد على الإطلاق يعيرهم انتباها، لهم مكانهم، كما لهم الأبقار في إسطبلاتهم والمعدات في مخازنهم والمحاصيل في مستودعات غلالهم.

في كل مرة كانوا ينتظمون فيها لنيل حقوق، كنا نترك لهم فسحة صغيرة كمن يزيح فوق مقعد لجار يأخذ راحته دون أن يوجه له الكلام. بقدر ما كان عددهم يزداد، كان عددنا يقل أكثر على نحو مضحك وتقل معه رغبتنا برؤيتهم. كأننا حين نتجنب

النظر إليهم نحرمهم من الوجود الحقيقي، الشيء الوحيد الذي كان يهمنا هو الحياة الدائرة في عالمنا.

لم يكن إيريك قد قال لي شيئا، لكنني خمنت أين يأخذنا. كفرنسي هجين من مناطق متنوعة، من مور ومن كاتالان، من الباسك ومن بروتون، لم يكن لديه أدنى تصور سابق عن المجتمعات الأخرى، لا بل كان يبدي بعض الاهتمام حيالهم. وظَّف في تلك المشاريع هنودٌ وصينيون وكل أجناس الأفارقة، بالأخص مسلمين واهدين من الساحل الزنباري. لم تكن لديه معهم علاقات تهذيب بارد ينم عنها الخوف والازدراء، والتي تثيرها طبقات العبيد لدى أرسقراطي الجزيرة. كانت لديه القدرة على الإصغاء إليهم والضحك على نكاتهم، ومشاطرة أحزانهم ومشاركة احتفالاتهم، كان يهتم بمعتقداتهم وبتاريخهم وبلغتهم، يفعل كل هذا من دوني، إذ إنه يعرف أن ذلك يفوق قواي، وأنا كنت أغفر له هذا الافتتان كما نغفر لطفل سخافة ألعابه، فضلا عن ذلك، وشيئا فشيئا، عاد إيريك إلى رشده. لشدة ما كانت العلاقات على الجزيرة تتوتر، وبالأخص منذ أن استولى الهنود على السلطة، ألقي بكل البيض في السلة نفسها؛ سلة المستعبدین القدامى. لاقى إيريك تجارب مريرة، شيئا فشيئا، انحاز إلى موقفي، وبدأ هو أيضا يبحث من جديد عن العزلة والوحدة، هو الذي لم يتعلق قط بشكل كبير بمنزلنا، ويراها بعيدا عن الحياة، وغارقا جدا في الطبيعة النباتية والبحرانية، بدأ يقدره، قلَّ خروجه للعمل، وصار لا يرتاح إلا في منزلنا.

غير أنه منذ بدأ بمعاشرة الهنود، صارت لديه معرفة جيدة عن عاداتهم ومرتفعات أماكن عبادتهم، كنت أظن أنه يقودنا نحو إحداها.

غادرنا الطريق الدائري، وانعطفنا نحو الداخل، سرنا في منطقة من الجزيرة تخلو عمليا من القرى. في غياب القمر، كان كل شيء حالكا في الخارج، أدركت من سرعة المحرك أننا نرتقي مرتفعاً طويلاً، كان إيريك يأخذنا نحو تلك المناطق الحراجية الجبلية في الوسط، والتي بالكاد أعرفها، لم تكن الأرستقراطية ترى مناسبا لها سوى أماكن مختارة، شواطئ البحر أو النهر، ومرتفعات العاصمة عند الاقتضاء، أما الجبال الصغيرة المحايدة في الداخل غير الصالحة للزراعة فقد تركت للإهمال، بغاباتها البدائية. فيما مضى، كان العبيد الآبقون يجدون فيها ملاذاً، حين وصل المهاجرون الآسيويون، أخفوا فيها، على ما يبدو، كل ضروب عباداتهم.

منذ بدء السماح رسمياً بممارسة كل العبادات، حتى في أصغر القرى، لم تفقد هذه الأماكن المقدسة من مكانتها، على العكس تماماً كان الهنود بشكل خاص يواظبون على ارتيادها، أظن أنهم يحافظون عليها لأمنياتهم الحميمة، يبحثون فيها عن نجدة آلهة أكثر بريرية وقدرة من آلهة تقيم بخمول داخل معابد الإسمنت، المعروضة تحت أنظار الجميع على أطراف الطريق.

تذكرت الآن أن إيريك، منذ خمسة عشر عاماً، عندما كان شغوفا بالحضارة الهندية، اصطحبني إلى أحد هذه المخابئ المقدسة؛ كانت الأشجار المترامية الجذوع تأخذ مكان الأعمدة، وتشكل على ارتفاع عشرين متراً من الأرض قبة بالكاد تنفذ من خلالها الشمس. كانت تماثيل الآلهة الهندوسية تتوزع في المكان هنا وهناك مثل أعمال في معرض.

بدأ الهنود في تلك السنوات الأخيرة بإقامة أماكن مقدسة

على الشواطئ وحتى داخل البحر، ربما كي يستعيدوا الإطار الطبيعي إنما في جو أكثر هدوءاً، ربما كي يظهروا كذلك بأنه لم يعد هناك موطن قدم واحد في الجزيرة لا يمكنهم بلوغه. يبدوون عموماً، كما حصل عندنا، بوضع تمثال خفي في الرمال، ثم يأتون بتمثيل أخرى، وشيئاً فشيئاً يصبح الشاطئ مكاناً مقدساً، تتجمع فيه الحشود أكثر فأكثر. العيش والموت أقرب إلى آلهتهم، عجائز، مرضى، مبشرون هنود يختارون السكن إلى جوارها. كان باعة الخبز المرقوق يقيمون أكواخهم الخشبية في الأنحاء، كي يستترزقوا. يغدو المكان الخالي بوقت قصير أشبه بضفاف نهر الفانج. منزل إحدى بنات عمي الواقع على أطراف الساحل الجنوبي، أمسى وسط هذا النوع من أماكن الحج.

انتقلت ابنة عمي في النهاية إلى أوروبا، لكنها أصغر مني بكثير، ولديها موارد ذهنية ونفسية أنا شخصياً استفدتها..

أية أفكار يقلب إيريك في رأسه بصمت بينما كانت السيارة تضج في المنحدر؟ بالتأكيد ليست تلك القضايا المجردة. لديه ذهن عملي، يحب التفاصيل التي، بحسب رأيه، تصنع النجاح في كل مشروع، أحد تلك التفاصيل خطر على بالي في تلك اللحظة. - اذهبي إلى الخلف وغطيه، ثمة بطانية في الصندوق، تحت

المقعد اليساري.

انزلقت بين المقاعد ورحت أبحث عن الغطاء، كنت أرى على ضوء مصباحي التمثال مستلقياً على ظهره بيتسم بغموض، أدركت عندئذ الخطورة. في جزيرتنا اليوم، وبوجود العداوة المكتومة لمجتمعاتنا، أصغر حريق قد يشعل الأتون، واحدة ممن يمثلون أقدم عائلة مزارعين في الجزيرة يقبض عليها وهي

تسرق (نعم، سوف يقال بالتأكيد تسرق، إلا إذا كان الصحفيون يفضلون كلمة «تنتهك») إلها هنديا، هذا ما سيطلق فضيحة غير مسبوقه، وإذا ما استغل بمهارة، يمكن للحادث أن يسبب بانتقامات عنيفة، ويبرر عمليات نهب، لا بل جرائم.

كنت قد غطيت التمثال وعدت إلى مقعدي حين أوقفنا دورية استطلاع.

كانا اثنين، مسنا وشابا، بادرنا المسن أولا، كان وجهه مضغنا، أسنانه الأمامية متباعدة، يتحدث بتعابير متكلفة، كان على ما يبدو رجلا أرهقه النظام القديم، من الخدم الذين يخشون أسيادهم.

- سيدي، سيدتي، طاب يومكما، هلاً تفضلان بإظهار أوراق السيارة، رجاء؟ وأوراقكما، لو سمحتما.

بينما كان إيريك يخرج الوثائق المولجة داخل واقية الشمس، كان الرجل يلقي نظرة على حجرة السيارة. كنت بالتأكيد قد نسيت إحضار جواز سفري، هذا أمر لا يمكنني تصوره؛ أن يتوجب علي التزود ببطاقة هوية على الجزيرة، استقرت عائلتي فيها منذ زمن طويل، وأنا مشهورة جدا لدرجة أنني منذ الطفولة، كنت معتادة أن يتم التعرف إلي في كل مكان، لا بل كانت إحدى تلك الإشارات التي تشعرني بأنني في موطني. في أماكن أخرى، كان علي أن أستمد وجودي من تلك السلطة التي يمنحني إياها الآخرون والتي تدعى هوية. هنا أنا موجودة بشكل طبيعي كما البحر وحقول قصب السكر، لكن هذا الزمن قد تحول، وأنا خُدعت.

بالنسبة إلى إيريك، مرة أخرى، كان قد فكر في كل شيء، أخرج جوازينا من جيب قميصه، قام الرجل وهو يعاينهما

بانحناء خفيفة برأسه، كان اسمي قبل الزواج يعني له شيئاً،
فانحنى أمام ما كان يمثلته بالنسبة إليه، لسوء الحظ، في
اللحظة ذاتها، وصلنا صوت الشرطي الشاب العدائي، كان
يدور حول السيارة رافعا مصباحه إلى النوافذ، قال شيئاً ما
لزميله بالهندية.

تسارع نبض قلبي، أدركت بأنني لم أفكر فعلاً بشيء،
لا بالدوريات على الطريق التي شاعت أكثر فأكثر منذ راحت
زمر الجانحين تمارس القرصنة في الريف، ولا بضرورة تقديم
تفسير لوجودنا في عز الليل في مكان يبعد كل هذا البعد عن
منزلنا، لقد رمينا بأنفسنا في فم الذئب.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟ سأل الشرطي المعجوز الذي أرغمه
عداء زميله الشاب على اتخاذ لهجة سلطوية.

ماذا بوسعنا أن نجيب؟ تطلعت ناحية إيريك، ولدى رؤيته
هادئاً وطبيعياً، شعرت تجاهه بعاطفة جمّة، لقد استبق كل شيء.

- ثمة كنيسة أبعد قليلاً، هل تعرفها؟

- لا.

- هذا ليس غريباً، يجدر البحث عنها. في الحقيقة، هي
كنيسة صغيرة مبنية على رأس جبل صخري وسط الغابة، يوصل
إليها مشياً بمدة نصف ساعة.

كان الشرطي يتنفس فاغر الفم، قاطعاً العلوّيان يرفعان
شفته ويمنحانه هيئة أرنب كبير مسالم.

- هناك قوة في هذه الكنيسة، (تابع إيريك) قوة كاملة في
الحقيقة، يقال بأنها تشفي أمراض النساء، لكن يجب الذهاب
إليها والصلاة ليلاً قبل بزوغ القمر.

ألقى الرجل ناحيتي نظرة، كان لديه حسن اللباقة فلم يسأل المزيد.

- أفهم. قال وهو يغمز بعينه ببطء.

كان إيريك عبقريا رغب في تقبيله، لكن الحارس الشاب لم يترك ارتياحي يطول، عاد نحونا، وبطريقة فظة لها علاقة بالأعراف الجديدة للجزيرة بالتأكيد، صاح بنا:

- ماذا تتقلان في الخلف؟

لقد وقعنا، شعرت بالعرق يفرق ظهري، الانتهاء بالخزي، لن تسامحني عائلتي أو ما تبقى منها على ذلك. رحت أتخيل الدعوى، الحملة الصحافية، الحقد.

بدا إيريك مرتبكا أيضا، لكن ذلك كان حذاقة مذهلة.

- لا شيء. قال مضطربا.

- كيف لا شيء؟ يوجد شيء ضخم تحت غطاء.

التفت إيريك وتفحص الحجرة بطبيعية تامة.

- ماذا ترك، مرة أخرى، هؤلاء الوقحون؟ برطم.

ثم التفت نحو الشرطيين وشرح لهما مبتسما:

- أنتما تفهمان، هذه سيارة المتجر، فضلت أخذ هذه على

سيارتنا، فهذه الـ 4x4 للطرق المحفرة، هناك في الأعلى من

أجل الوصول إلى الكنيسة..

- أنت لا تعرف ماذا تنقل في سيارتك؟ اعترض الشرطي

الشاب بلهجة ازدرأء ساخرة.

- هذا صحيح، لا شك أنني رئيس متسامح جدا، في الواقع،

أترك رؤساء عمالي يستخدمون ناقلاتنا عندما يحتاجون إليها،

أخشى أنهم يديرون أعمالهم الخاصة فيها، ولكن لا فرق عندي

طالما يقومون بعملهم بشكل جيد .

- ماذا يصنع مشروعك؟ سأل الشرطي الأكبر سنا .
- لا نصنع شيئا، ننقل ونبيع إلكترونيات خاصة بالسفن؛ مسابير، GPS، مذياعا، أشياء من هذا النوع .
- ابن أختي الصغرى يعمل هناك أيضا، اسمه كومار ..
- هل يمكن أن تفتح الصندوق، صرخ الأصغر الذي نفذ صبره .

- كومار .. انتظر، ثمة كومار في فريقتي، أنت تعلم، أستخدم الكثير من الهنود، ويختلط علي الأمر بأسمائهم، هو رجل في الأربعينيات تقريبا؟

- لا، لا أظنه هو، كومار لا يزال ولدا .

كان الشرطي وهو يتحدث قد تفحص أوراقنا بإيجاز، أعطاهما لإيريك مبتسما .

- شكرا لعدم إيقافنا أكثر يجب ألا نتأخر، إذا أردنا رؤية ظهور القمر .

- الصندوق ..

- هيا، قاطع الشرطي الذي أسكت زميله بيده الممدودة كمن يقطع عليه الطريق .

كان الآخر غاضبا، لكن النظام التراتبي بلا شك قد حرمه من كل وسائل الاعتراض على قرارات من هو أعلى منه . انطلقنا دون انتظار احتدام النقاش، لم ننس بكلمة لوقت طويل . بعد حوالي الكيلومتر تقريبا، ركن إيريك السيارة على جانب الطريق، أسند جبهته على المقود ونفخ بعمق .

- كنت رائعا . قلت له .

ابتسم لي، وما إن صار مستعداً للقيادة عاود الانطلاق. لم نكن بعيدين جداً، كان الطريق يتلوى في الجبل، فجأة ظهر طريق مستقيم وفسحة طويلة، أدخل إيريك الـ 4x4 متراجعا تحت نوع من أقواس النصر الخشبية التي كانت ولا شك تميّز مدخل المعبد.

تم كل شيء بسرعة كبيرة، تضاعفت قوانا عشر مرات أكثر بسبب الخوف، كانت تلك اللحظة الأصعب. استطعنا بصعوبة بالغة تفسير وجود التمثال في السيارة، ولكن لو قبضوا علينا ونحن نحمله بأنفسنا، فسوف يكون من المستحيل إلقاء المسؤولية على عاتق موظفي المتجر.. بدا لي شيقاً أقل وزناً بكثير مما كان عليه على الشاطئ. كان الهواء المنعش منشطاً، ركّزنا الإله بين صحبة طيبة، وسط مجموعة من خمسة أو ستة تماثيل تخفي العتمة معالمها. حضر إيريك التراب الطيني قليلاً وغرس التمثال بشدة، لم نلاحظ أنه ثبت على عجل، سيبدو وجوده كتقدمة جديدة وفاء لنذر.

وصلنا إلى البيت في الرابعة صباحاً، لم نتوقف عن المزاح والضحك في السيارة، مع هذا آوينا إلى السرير دون أدنى نية للنوم، طلع الفجر وذهبت آخذ حمامي الصباحي في البحر، كان الخليج خالياً من جديد، لم يبقَ أي أثر للزيارة المرتجلة للإله الهندي.. بول وهيرجيني انتصرا.

ليفهموني جيداً: أنا لا أدافع عن النظام القديم، حين كنا أسياذ الجزيرة، كل ما أطلبه، هو أن أحفظ من حولي بحصة أخيرة من هذا الماضي، كي أستمر بتنفس هوائه، من دونه لا أستطيع العيش. هذا الحيز هو بيتي وخليجنا، لا أحتاج شيئاً آخر غيرهما.

كانت رحلتنا الاستكشافية الصغيرة بمثابة ولادة جديدة، أصبحت أعيش منذ ذلك الحين كل دقيقة بكثافة. مرت عشرة أيام، عشرة أيام من السعادة المتجددة، مثل الهدوء قبل العاصفة، لم يكن لمبادرتنا الصغيرة ظاهريا أية عواقب، لم نتلق زيارة الشرطة، وهذا يعني أن لا أحد قدّم شكوى. لم يحدث أي تجمع عند الشاطئ، أو أي توتر بين زوار الموقع الاعتياديين. كنت أشعر بالاطمئنان كليا، تراخى اهتمامي ولم ألحظ في الأسابيع التي تلت جلبة السباحين الذين كان يزداد عددهم نهارا ويتأخرون مساء على الشاطئ بشكل خاص، لم ألحظ الشاحنة المتوقفة عند حدود الرمال، تناولنا عشاءنا لمساءات عديدة على الشرفة ولم تثرنا أية ضجة مشبوهة. في الليلة المشؤومة غفوت تهددني رياح الغرب، تلك الرياح التي تجعل أشجار النخيل تصفر وترفع معها ستائر الزيد عاليا.

إلى أن أدركت في آخر لحظة أنني كنت أظأ رمال الخليج، مكان شيفا الذي أبعدناه، خلال بضع ساعات ولكن بعد تحضير طويل دون شك، نصب معبد كامل. استخدمت صخور منقولة من الساحل كأساس يحمل جدران مسبقة الصنع مغطاة بطلاء بالكاد جف وملطخ بالرذاذ. وسط الحرم المقدس، المضاء بنافذة صغيرة مفتوحة من جهة البحر تسمح بمرور نور الفجر، جاء شيفا آخر، ومعه جانيش وبراهما وفيشنو وأربعة أو خمسة آخرون.

ها أنا أسمع الآن من داخل اليايسة قرع طبول، ومئات المشاعل المتلألئة. كان الزياح الهائل يتقدم، للاحتفال بولادة

النهار وتكريس المعبد الجديد، كان الجمع الهندي يصل من كل
حذب وصوب، هادئاً، ثابت العزم، منتصراً..
كتبت هذه الصفحات في غرفتنا الفارغة، الأثاث قد رحل،
سمّرت عوارض خشبية على كل النوافذ، ذهب إيريك لتسجيل
الحقائب في المطار، لحسن الحظ، لم ينتبه بينما كنا ننقل،
بأنني احتفظت بأحد مسدساته، عندما سيمر لأخذي في
الساعة الثامنة، سيكون قد فات الأوان.

ملجأ ديلبييرو

في مرتفعات دولوميتي الجبلية التي يتنازع عليها الإيطاليون والنمساويون، لا يشبه تسلق الجبال ما هو عليه في أي مكان آخر من جبال الألب. حمل النمساويون إليها عزمهم وجسارتهم؛ تنتشر طرقات عمودية فوق المنحدرات الأكثر ملاسة. لكن الإيطاليين بمساهمتهم هم أيضا بمنافذ مهمة خففوا عناءهم بأناقة وحب للحياة وحبور لا تشعر بهم في أي مكان أفضل من الملاجئ.

حين تعود من وحشة الصخور، تستقبلك في الحال روائح البوليتا والريزوتو. لا تزال الموائد الخشبية على شكلها التيرولي، تغدو جزيرية حين يظهر عليها طبق باخر من السباغيتي المحضر على طريقة الأماتريشيانا، تستقبله صيحات التهليل. بعد بذل الجهد وقهر الضجر ومحنة الخوف وأحيانا نهاية العاصفة، كان أعنى متسلقي الجبال يختلطون بالسياح الذين بمعظمهم صعدوا حتى موقف السيارات. ارتدوا على ارتفاع خمسين مترا معطف الفراء الذي اشتروه غالبا جدا من محلات كورتينا دامبيزو، لكن الحكاية التي يروونها منبهرين عن عملهم الباهر هذا غالبا ما تكون استعراضية أكثر من حكاية رواد الجبال الأشاوس. لا يفتاظ منهم أحد، لا.. بل يبدو الرياضيون راغبين بمراعاة

مكانتهم كما يليق بهم. أكثر من مرة، وراء صخرة حيث لا يزال منعطف في الدرب يخفي المأوى، شاهدت متسلقي الجبال منهكين، سود اللحي، مسحجي الأيدي، يتوقفون للحظة، يلقون بحقائبهم ويسحبون من أحد الجيوب مشطا ومرآة كي يعيدوا ترتيب شعرهم قبل الدخول.

ظل الكثير من الفرنسيين غرياء عن هذه الروح المحلية ومتشبهين بالخلط ما بين الشجاعة والقساوة، الجدية والكآبة، الإرادة واليأس. عن وعي أو لا هم أوفياء للشعار الكثيب «من أجل الوطن، عبر الجبل»، يسبب ذلك أحيانا حوادث صغيرة مزعجة لا نعرف فيما إذا كان علينا وصفها بالمأساة أو بالمهزلة، مثل تلك التي تخطر على بالي اليوم.

في تلك السنة، ذهبت مع أحد أصدقائي للتسلق في منطقة «باسو فالساريغو». بعد أسبوع من السباقات، قررنا معاودة النزول إلى الوادي كي نرسل البريد ونشتري الطعام. فيما بعد تأخر الوقت للصعود مجددا إلى أحد نزل الجبل، ولم يكن أمامنا خيار سوى قضاء الليلة في القرية من حيث تمونا. كانت بمثابة مركز تزلج شتويّ وبعض الفنادق تبقى مفتوحة كل الصيف، لكنها كانت تقريبا فارغة. المطعم البسيط الذي دخلنا إليه للعشاء كان عمليا خاليا، باستثناء رجل مسن يجرع حساء وحيدا قرب إحدى النوافذ.

كان الرجل قصير القامة، لكن قامته الرياضية كانت تتم عن حالة جسدية ممتازة. له لحية غير عادية، وتكشف بالأحرى عن نقص في العناية. كان هذا مُدهشا لشدة ما كانت ملابسه مناسبة. الحق يقال، ثيابه المضحكة تطلبت بلا شك الكثير

من البحث، إذ إنها عدّة متسلق جبال حقيقية من سنوات الثلاثينيات. يلبس كل شيء؛ القميص الواسع ذا المربعات، الكنزة الصوفية ذات الجداول، وبنطال النيكرز المضموم تحت الركبتين بأربطة، جوارب جاكارد وحذاء تسلق من الجلد المشمع بشكل رائع. كان يمكن أن يوضع وسط متحف التسلق في شامونيكس ويظنّه الناس دمية تمثال «أرمان شارليه» بعد أول عبور له إلى قمم الشيطان. ونحن بسترتنا الجلدية وفرائنا القطبي أحسّسنا بأننا عصريان على نحو مبتذل للغاية. رد على نظراتنا الفضولية بنظرة احتقار، هذا على الأقل ما ظنناه قبل أن نتأكد من أنه كان ببساطة غاضبا.

بدا كل شيء يكدّره؛ فهو يأكل بحنق، ويقطع خبزه كمن يخفق حيوانا لا حول ولا قوة له. أعاد قطعة اللحم التي وجدها سيئة الطهي وهو يقوم بحركات التهديد نحو النادل. كنا نسمعه يغمغم ويعبث بحمالة المفاتيح المتدلية من عنقه والمعلقة بحبل جبلي صغير.

كانت تحركاته تخلق جوا خانقا داخل الصالة الفارغة. تقف صاحبة المكان والخادم بحذر خلف المشرب مثل مصارع ثيران مختبئين بحماية سياج. لم نجرؤ على الكلام لكثرة ما كان يصفي إلى كلامنا، لكن ثرثرته وحيدا لاحت لنا باللغة الفرنسية، أدركنا أن صاحبة المحل أجلستنا دون شك قربه لتهديثه لأنها عرفت أننا مواطنوه. بعد كأسين من نبيذ آستي، استرخينا ولم يعد هناك شيء يمنعنا من معاودة الحديث عن سباقات النهار، الهبوط الشاق، العاصفة التي لم تظهر في نهاية الأمر، إلخ.. كنا قد نسينا جارنا عندما مال نحونا.

- أنتما فرنسيان على ما سمعت؟
كان مزاجه العكر يضي على السؤال صيغة فظة ومهينة
تقريباً.

- نعم، وإن يكن؟
ردّ رفيقي على الرجل، ولدهشتي الكبرى، باللهجة نفسها.
كانت عبارته لا تترك مجالاً للشك بأنه يرغب بصفعه على
وجهه. كانت هذه الوسيلة الأمثل إذ تابع الرجل بلطف أكثر.
- سمعتما تتحدثان عن «ساس باردوي»، أحب أن أعرف إذا
فيما إذا كان طريق «ميكيلوزي» سالكا حالياً.
«ساس باردوي» جبل سهل بلوغه كثيراً. تخطّ سطوحه
العديد من طرق التسلق، وصعود ميلكوزي تقليدي، ولم يعد
دارجاً إلى حد ما، فيه أحد تلك المعابر الطويلة المكشوفة التي
يؤثرها القدماء كثيراً، لكنّ المتسلقين العصريين يفضلون تجنبها،
الطريق الذي تسلقناه لم يكن بعيداً جداً عنها.
- إنه بحالة ممتازة، (أجبت)، مثل كل مجموعة الجبال في
هذا الوقت.

هزّ الرجل رأسه. لا يزال عكر المزاج، لكن بما أن غضبه ليس
موجهاً إلينا بادرت بسؤاله بدوري:
- هل أنت هنا منذ وقت طويل؟
نظر إليّ بريية، لم أحسب تهوّر سؤالي، لمست عنده أكثر
النقاط حساسية.

- أعود غداً. أقرّ بتكشيرة تتم عن الألم.
- يا للخسارة، (علق رفيقي)، إقامتك في نهايتها..
- إذا أردت، (قال هازئاً)، وصلنا قبل البارحة.

يبدو أن هذا الموضوع أثار انزعاجه، وارتأيت أن من باب الحيلة تغييره.

- هل سبق لك أن تسقلت الميكوزي؟ سألت.

- نعم سيدي العزيز، تسلقته في العام 1959، لم تكن قد ولدت على الأرجح، كان يعتبر في ذلك الوقت سباقا صعبا.
- لا يزال.

- شكرا، أنت نبيه.

كانت الابتسامة التي ارتسمت على شفثيه الرقيقتين لأول مرة، طبيعية وهادئة تقريبا.

- كان وضعي الجسدي ممتازا في ذلك الوقت، ومشرفو اتحاد الجبل العالي يعلقون علي آمالا كبيرة، أقول هذا دون تبجح. رشحوني من أجل حملة وطنية إلى الهمالايا. في النهاية، دعنا لا نتحدث عن الأمر بعد الآن..

كان يخفق بين أصابعه إحدى الممالح التي كانت موضوعة على الموائد على شكل عربة تزلج.

- منذ اثنتين وثلاثين سنة لم أعد أتسلق.

- حادث؟

- إذا أردت، (قال باستهزاء)، لكنه شيء شائع جدا، يسمى الزواج.

كنا منهمكين جدا بالتهام طبق الضلوع كي نرد. في كل الأحوال، كنا لا نعرف ماذا نقول له، لكن الرجل كان قد اندفع ولم يكن بحاجة إلينا كي يتابع.

- كانت زوجتي طالبة بعلم الآثار، لم تكن تمارس تسلق الجبال، لكنها لم تكن ترغب بشيء أكثر من التعلم، إلخ.. قمنا

بجولات وبعض السباقات الصغيرة، كان لدي ضعف، إذ ظننت للحظة بأنها يمكن أن تحب تسلق الجبال.. هزّ كتفيه. أحدثت كسرة خبز بين يديه صوت كسر عظم فخذ.

- ما إن ولد ابننا، تمسكت بهذه الحجة كي توقف كل شيء.
مع التاليين، لم يكن بالإمكان أن يتحسن الوضع.
- كم ولدا أنجبتما؟

- ثلاثة، صبيين وبنات، هم أكبر سنا منك، أراهن على ذلك.
ابنتي هي الصغرى، عمرها ستة وعشرون عاما.
بفم ملآن والكأس في يدي وافقت بصمت. كان عمري خمسة وعشرين، ورفيقي أقل بسنتين.

- ظننت في البداية أن بالإمكان تقسيم العطلة، ينال كل منا القليل مما يعيشه. خمسة عشر يوما على البحر، ومثلها على الجبل مثلا، ولكن في المرتين اللتين ذهبنا فيهما إلى جبال الألب لم أستطع الابتعاد عن عريات الأطفال. فضلا عن ذلك، للقيام بماذا؟ ومع من؟ فضلت في النهاية قضاء كل العطل على كرسي للتمدد على البحر. على الأقل، لم يكن هناك تحت ناظري قمم تستخف بي. تابعت عملي في الإدارة، والد جيد، زوج جيد، تقييم جيد من رؤسائي، حتى التقاعد في السنة الماضية، تقييم جيد جدا، مع سطر وحيد في عمود المعدل؛ خلال اثنتين وثلاثين عاما، لم تطأ قدماي الجبل.

فهمت أكثر غرابة زيه؛ الجوارب، سروال النيكر بوكر، كان كل شيء قديم الطراز لأنه كان من ذلك الزمن، كان حزام بنطاله ضيقا قليلا ولم يفلق آخر زر.

- لكن، هذه السنة (صاح بهيئة انتصار مزيف)، كانت أخيرا ساعة العودة الكبرى.

رفع كأسه وشربه دفعة واحدة، أراد ملأه مرة جديدة لكن إبريق خمره كان فارغا وكذلك إبريقنا. نادى الصبي.

- أحضر لنا زجاجة جيدة، هيا، نبيذ باردولينو مثلا. هل تحبان الباردولينو؟ يحبان.. حسنا، زجاجة وثلاث كؤوس، دعونا نحتفل بعودتي الكبرى إلى الجبل.

على الرغم من مرح لهجته، لكن رجع كلامه كان كئيبا، وكنا نخشى ما قد يتبع ذلك.

- اسمي روجيه ساند، (أردف)، تذكر جيدا هذا الاسم؛ إنه اسم رجل انتظر اثنين وثلاثين عاما كي يعود إلى الجبل، ولن يعود إليه أبدا بعد الآن.

تبادلت وصديقي نظرة حائرة، كانت الأمور تسير على نحو سيئ.

- أخيرا، هذا العام، كانت كل الظروف مؤاتية؛ ابننا الثاني، تزوج في العام الماضي من فتاة لم أستلطفها كثيرا، لكنها رياضية جدا، وتسعدها فكرة الذهاب إلى دولوميتي. قبل إنجاب الأولاد، عليهما استغلال ذلك. بما أن هذا الابن هو المفضل لديها، وافقت زوجتي بالتأكيد على الانضمام إلينا، مع إحياءات بالتضحية بالتأكيد. ابنتي التي كنت كسبتها إلى جانبي منذ وقت طويل، لا.. بل قامت بدورة تدريبية على التسلق في الجبال، لحقت بنا، إنها ليست أكثرنا موهبة، فهي مصابة بالريو. وحده ابني البكر الذي لديه مشكلات في عمله، بقي في نانث حيث يقيم.

جاء النادل مع زجاجة الباردولينو يحمل منشفة في ثنية

ذراعه، أذاق بتوجس هذا الزيتون الذي ليس في الحسبان، تلقى استحسانه بابتسامة ارتياح عريضة.

- لنشرب نخب رحلتنا، قال جارنا الكريم.

قرعنا كؤوسنا ونحن في غاية الحبور لأننا تحولنا عن الحديث، ورحنا نعلق على نوع النبيذ، لكنه ما لبث أن عاد إلى قصته.

- إذا، ها نحن نرحل، زوجتي، ابنتي، أخوها وزوجته، أخذ الجميع أماكنهم تحت إمرة الدليل الواثقة. رفع كأسه.

- أنا شخصياً..

دخل زيونان وجلسا على مائدة منا.

- اشتريت لهم تجهيزات كاملة، مثل تجهيزاتي تماماً. لا أثق بمعدات البلاستيك التي تصنع اليوم، أما بالنسبة إلى الملابس الحالية، اسمح لي لو صدمتكما، أراها سيئة الذوق. بالنسبة لي، الأمان والنوعية هما العرف. تخيلتهم هم الخمسة بأحذيتهم الجلدية القاسية وعكازات التسلق الخشبية، لا شك أنهم نالوا بعض الاستحسان لدى السياح اليابانيين. لم أتجرأ على السؤال: أين يباع هذا النوع من المعدات حتى الآن؟

- كان لدي ذكريات محددة للغاية عن سلسلة الجبال، كنت أعرف أن أول سباق للمبتدئين هو الصعود إلى نزل ديلبييرو، تعرفان نزل ديلبييرو بالتأكيد؟

أومأنا كلانا برأسينا.

- هذا مدهش حقاً (قال باستهزاء يدل على الاستهجان)، بدأت أجد هذا الرجل يشغل البال صراحة إنما كان قد فات الأوان، كان علينا الهروب من قبل.

- ملجأ حقيقي، هذا ما هو عليه ديلبييرو، ليس واحداً من

فنادق المرتفعات تلك حيث تصل بالسيارة كي تشبع من اللازانيا .
الجبل ليس للسياحة، تبال قلت ذلك ورددته لمجموعتي الصغيرة،
ملجأ يليق به هذا الاسم يستحق ذلك. يلزم ساعات من الجهد
لبلوغه، ولكن بعد ذلك، يا له من سرور، أليس كذلك؟
ملأ كأسينا وجرع كأسه بعصية. كنت أتساءل إذا كان قد
ثمل، على كل حال، استأنف بشكل أقوى:

- الانطلاق في الخامسة صباحا! الاستيقاظ في الرابعة.
كانوا يتأففون بالتأكيد، لكنني عدت وقلت لهم: «في الجبل،
يستيقظون باكرا»، ربما لم أقلها لهم بلطف كاف إنما كي تقود
زمرة عليها أن تطيع، هل أنتما موافقان معي؟

وافقناه الرأي بالرغم من أن هذه المفاهيم بدت لنا غريبة،
نحن اللذان لا نفعل شيئا سوى للاستمتاع وعلى إيقاعنا.

- تم تجهيز الحقائب في الليلة الفائتة، ستة عشر كيلوغراما
للرجل، أربعة عشر للنساء، بتدقيق جهاز مقياس الدينامومتر.
لم أستطع كبج نفسي من الصغير.

- هل كنتم مجهزين لتسلق إفرست أو ماذا؟

- كنا ذاهبين إلى ديلبييرو، لكن فيما بعد، كان علينا القيام
بدورة لثلاثة أيام عبر الشعاب الجبلية. لم أرد لهم أن يعانون من
البرد والمطر ولا أن أخطر بأمانهم؛ حرصت إذ ذاك على أن
يكون معنا كل شيء؛ معاطف مطرية، مسامير الجليد، كلابات..
- كلابات! ولكن لا يوجد جليد هنا.

الدولوميتي جبال منخفضة تشكل في الصيف منظرا أخضر
من المراعي والغابات والصخور العارية.
- لا أحد يعرف أبدا، قد تتلج فجأة.

قال هذا بخبث، فأخفضت بصري.

- وفوق هذا، يحمل كل واحد خمسة لترات من الماء، في قُرب.

لم أعد أجرؤ على قول شيء ورغم ذلك: خمسة!

- في البداية، (تابع ساند)، تقدموا على نحو جيد تقريبا، باشرنا بالجبهة الأمامية، ثم طلع النهار، كان المنظر مشرقا وأنا أشرح لهم عن كل شيء؛ الأزهار، القمم، الحيوانات. رغبت بأن يشاركوني سعادة وجودي هناك أخيرا. لسوء الحظ، نحو الساعة العاشرة، قطعت زوجة ابني المرح، حين سألتني السكوت قليلا للاستفادة من الهدوء. تحمّلت دون تعليق.

كنت في أعماقي أفهم زوجة ابنه لكنني تحاشيت قول ذلك. - عند الظهيرة، وقت الغداء، كان الجو حارا جدا، وبما أننا أصبحنا في مكان عال جدا، لم يكن هناك شجر نستظل به. مع ذلك، هذا ليس ذنبي. الوجبة سردين بالزيت وبالدهن المضاعف، بالتأكيد لم يرق ذلك للسيدات. أصررت على أن يأكلن رغم ذلك. يستهلك الجهد الكثير من الطاقة، ويجدر تناول أغذية عالية السعرات الحرارية، هذا معروف جيدا. بالغت بالعناية بهم؛ كنت أفتح العلب بمديتي السويسرية «بيريه»، أوزع المناديل، كما كنت بشكل خاص أحاول إضحاكهم قليلا بالقصص الجميلة.

كان يعترف بهذا مكرها، مع ذلك كنا نشعر بأن الجو يصبح خانقا، كما أننا لم نفاجأ بسماع البقية.

- فجأة، وقفت ابنتي وسارعت وراء صخرة كي تتقيأ، أخذت زوجة أخيها تدافع عنها وتقول إنه يجب أن نعود، لحسن الحظ، احتجت ابنتي بالرفض، كان كل شيء على ما يرام وتريد المتابعة،

كنت أعرف أنها تقول ذلك من أجلي وكنت متأثرا، في النهاية، أخذت حقيبتها فوق حقيبتي وعاودنا الانطلاق.

كان الليل يتقدم وأرى رفيقي يتثائب، وأنا أيضا كنت أشعر بأن تعب الأيام الأخيرة قد حلّ دفعة واحدة، لكن محدثا لا يشفق علينا الآن، كما لم يشفق على عائلته وتابع حكايته.

- طوال الوقت الذي كنا فيه فوق الدرب، كان كل شيء يسير على ما يرام. كانت زوجتي تشتكي من ساقبيها، ولكن مضى سنوات وهي على هذه الحال وأنا أصغي إليها بصبر كالعادة. ويا أسفاه، صارت الرؤية أقل وضوحا وتوجب علينا معاودة صعود ممر ركامي شديد الانحدار. جعلتهم يخرجون الكلابات وربطتهم بالحبال.

- ربطتهم بالحبال! في الركام.

- ولم لا؟ إنها التقنية التقليدية، وقد أثبتت صحتها. فضلا عن ذلك، لم تكن لتحدث مشكلة لو لم تتعرض ابنتي وسط المنحدر لأزمة ربو. أخرجت بخاخ الفانتولين من حقيبتي، بعد أن تشقت ثلاث بخات، تحسنت، لم تكن أزمة كبيرة، ولم يكن ليؤدي ذلك إلى شيء لو لم يتدخل ابني، ادّعى انحيازه لأخته ولزوجته، وأعلن هو أيضا أنه يجدر بنا أن نعود أدراجنا.

- في الواقع، كان هذا معقولا أكثر.

- بالطبع لا، كنت أعرف لماذا يقول ذلك، كان لديه بثور مائية في قدميه، ورفض أن أضغ له اللصاقات الطبية مثل الآخرين. على كل حال، كان قد فات الأوان، كنا أقرب إلى الملجأ منا إلى نقطة الانطلاق، والعودة ستكون شاقة جدا. قلت له إن الكل سيعالج عند الوصول، ولم يكن أمامنا حل آخر غير متابعة

السير. في تلك اللحظة، قفزت زوجته وأمسكت بخنّاقِي. هل تعلمان ماذا قالت لي؟

كان نبيذ البورديلينو قد بدأ يسبب لي ألماً في رأسي، فتجنبت هزّه.

- لا. تمتعت دون الكثير من الحركة.

- التفتت نحو زوجها وتدللت: «كيف يا عزيزي لا تفهم؟ لا نستطيع العودة لأننا لا نعرف أين نحن». حتى ذلك الحين تمالكت نفسي، ولكن عندئذ، ثارت ثائرتي؛ أخرجت خارطتين، خارطة الأركان العامة للعام 1951، فهي مرجع في كل الأحوال! أثبتُّ لهم بالتفصيل أننا على الطريق الصحيح، وبقي على الأكثر نصف ساعة من المشي، إذا لم نتباطأ. على هذا، عدت إلى الطريق مرة أخرى أشدَّ الحبال، أمّا هم فكانوا مجبرين على الخروج من ممر الركام المضحك هذا.

في تلك اللحظة، لا أعرف لماذا خطرت على بالي فكرة وسألته:

- ولكن، زوجتك، أولادك.. أين هم جميعاً الآن، لا يتناولون العشاء معك؟

- لا، هم في الفندق، ينامون، أمل ذلك..

- كيف رجعتم؟

- أنت مستعجل.. دعني حتى أنتهي.

بما أن محاولاتي لتقصير روايته باءت بالفشل، كنا مرغمين على انتظار البقية مكرهين. بعد ممر الركام وتحت الشمس طوال الوقت، وصلوا إلى وادٍ طويل فيه شلال، كانت السيدة ساند تمشي في المقدمة مترنحة؛ فقد وقعت ثلاث مرات، كانت

تعرج، ركبناها داميتان، في الخلف، لم يكن الابن بحال أفضل، زوجته هي التي تسنده. مريضة الربو المسكينة التي كانت في الرمق الأخير، تمشي في آخر الموكب، يجدُّ في إثرها والدها الذي كان ينشد زاعقا أناشيد المسير.

- أظن أن مع مجموعة بهذه الحالة، كنت لأستدعي النجدة.

قال بعد تفكير رفيقي الذي جعله النبذ جسورا.

- لا مجال للنقاش، هذا غير مجد! لكما وجهة نظركما ولي وجهة نظري، لن نغيرهما، في كل الأحوال، ما جرى قد جرى.

- تابعت المسير إذا؟ قلتُ بلهجة متهاودة، وأنا أشير إلى صديقي بالألا يخالفه القول.

- لم يكن هذا الشيء الوحيد، صدّقاني، كان هناك دائما أحد ما يتوقف ويصبح الأمر أصعب لدفعهم إلى الحركة. في النهاية، عملت لهم لعبة الشلال، كانت هذه آخر أوراق.

- لعبة الشلال؟

- لا تقولا لي إنكما لا تعرفانها! عندما تستفدان طاقة الناس إلى آخرها، الأولاد بشكل خاص، ألم تصيحا قط بصوت ملؤه المرح: «آه، تذكرت الآن، سوف نصل قرب شلال، سيكون بإمكاننا السباحة في ماء منعش جدا»؟ تمكنت على مدار ساعة من تقديم أجمل الأوصاف للمياه النقية، إذا كان الناس يشعرون بالحر، ينجح الأمر.

- هل كان هناك شلال فعلا؟

- بالطبع لا، كنت أمارحهم.

- جعلتهم بشلالك إذا يتقدمون خلال نصف الساعة الأخير؟

- لم يكن ما يلزمنا نصف ساعة لبلوغ ملجأ ديلبييرو، في

الحقيقة، كان لا يزل على مسافة ساعتين.

- ساعتين!

كان بأسلوبه المشوّق قد حوّلنا إلى مشجعين، غدونا بفكرنا نقف على أطراف الطريق نشجع هؤلاء الناس الذين لم نرهم قط.

- هل وصلوا إلى هناك؟

لكن صاحبنا كان مستسلما لفكرته، كانت النتيجة مذ ذاك تهمّه أقل من الطريقة التي حصل عليها. يعيد الحكاية في ذهنه ويعيش بألم كل وقعة من درب الآلام هذا.

- الشلال، قال بعد تفكير وهو يهزّ رأسه، لقد كان غلطة، انتهزت زوجة ابني الفرصة، أتتخيلان! وقفت في عرض الطريق وقامت بحركة واسعة لتشير نحو الأفق، من الناحية التي صعدنا منها. كان المنحدر أملس، لم يكن هناك أي جرف صخري، أو أية طية في الأرض، لا شيء قد يخفي شلالا، رغم القipzig والعطش، لم يصبحوا غُميا، منذ تلك اللحظة التي أبدت فيها ملاحظتها، أصبح جليا أنني كنت أعاملهم كأغبياء. أخرجت هاتفها الخلوي وقالت وهي ترمقني بنظرة تحدٍ: «كفى الآن، سوف أستدعي النجدة».

- وأرسلوا طوافة. ختم صديقي خائبا قليلا، مثلي لكنه مرتاح لأن القصة انتهت.

- لم يكن هناك شبكة خليوي.

أطلقنا تأوها عاليا جدا لدرجة أن بقية الزبائن توقفوا عن الطعام. سكب لنفسه كأسا وشربها دفعة واحدة، كان بحاجة ليقوّي من عزيمته. انتظرنا أن يبدأ من جديد، دون أن نقاطعه.

- جلس الجميع على الأرض، خلع ابني حذاءه وراح ينظر إلى فقاعات الماء الدامية في عقيقه، فقاعات بحجم كرة البنغ بونغ، وبدأت زوجتي تدهن الميركروكروم على ركبتيها. ابنتي ترضع موسّع القصبات، خلال هذا الوقت، كانت زوجة ابني تضرب بأصابعها على هاتفها الخلوي علّها تلتقط شيئاً ما.

- وانت؟

- أنا؟ قد يبدو لكم هذا من الحماسة، لكنني كنت أتطلع إلى المنظر؛ القمم الرمادية في البعيد كأشكال الدانتيل، المراعي شديدة الخضرة تلمع مثل فراء ثمين، والسماء، السماء التي لا تكون كما هي عليه حين تصعد كي تراها. رغم كل سنوات الغياب تلك، كنت أقول لنفسي إنني لم أخطئ، حبي لتلك الأماكن كان على حاله، كنت محققاً، إذ إنني لم أنسها قط، ولم أتكر لها.

- لكن، لم يكن بإمكانكم البقاء هكذا إلى ما لا نهاية، كان يجب اتخاذ قرار ما.

- نعم، شكلوا نوعاً من مجلس العائلة، يجدر القول بالأحرى، مجلس حرب، وكنت أنا المتهم، طلبوا مني الجلوس والإجابة بنعم أو لا: هل نحن قريبون من الملجأ؟ نعم. هل أنا متأكد من ذلك؟ نعم. هل من الممكن أن نكون قد أخطأنا الطريق؟ لا. هل هناك ما يمكن أن يعالجوا به في الملجأ؟ نعم، لا.. بل هناك ما تاكلونه وتنامون وتتصلون بالهاتف، إذا لسزم الأمر، ما إن نصبح هناك، فسنتمكن من الاتصال بطوافة لمعاودة النزول.. تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم ساد صمت طويل، أخيراً قالت زوجتي: «نحن نثق بك يا روجيه، أنت جبلي ماهر، سوف نتابع».

تهدج صوت ساند عند قوله ذلك، شعرنا بأن هذه كانت

بالنسبة إليه لحظة عاطفية مؤثرة، كان يوقع معاهدة سلام حقيقية بعد حرب لا نهاية لها على هذه الجبهة.

- عاودنا الانطلاق حينذاك، لم يعد أحد يجروء على التفوه بشيء، كان كل واحد منهم يحتمل ألمه بصمت. أعترف لكما بأنني كنت معجبا بهم وكنت سعيدا.. أخيرا، استطعنا الوصول إلى سفح آخر مرتفع، كان الملجأ وراءه، رغم الوقت الذي انقضى، قرابة خمس وثلاثين سنة، كنت أذكر بدقة هذا الوصول، قمت بهذا السباق مرتين هي شبابي، وفي كل مرة، كان ذلك الصخر الصواني الأخير يصعقني بجماله، ولأنه ينبئ أيضا بوجود ملجأ ديلبيرو مختبئا وراءه.

في اللحظة التي لفظ بها هذا الاسم بجزالة، بدأت شفته السفلى ترتجف وراح يهتز بالنشيج.

- كنا قد وصلنا تقريبا، لقد نجحوا! كنت فخورا بهم، الآلام ستُسى بسرعة، المهم أنهم أولوني ثقتهم وكنت مستحقا لها، كل شيء سيكون ممكنا من جديد.

عند تلك الكلمات، قلص التشنج وجهه، واهتز جسده بشهقة تشير الشجون والتمتع حواف أجفانه بالدموع، أمسك بمنديل وغطى وجهه، ثم وقف بوثبة واحدة واختفى في المراحيض.

كنا في غاية الضيق لدرجة آثرنا معها التواري عن الأنظار دون انتظار عودته، لكن الفاتورة تأخرت وكنا لا نزال هناك عندما عاد، ووجهه مفسول وشعره ممشط.

- اعذراني، قال بصوت عاد هادئا، أضجرتكما بقصتي، يجب أن أذهب لأنضم إلى من بقي من عائلتي، أخيرا.

رمشت عيناه من جديد، لكنه ضبط نفسه. شعرنا بشكل

- غريب أن القصة لم تكتمل، وينقصها تفصيل أخير كي تُفهم.
- كيف سارت الأمور في الملجأ؟ هل تمت معالجتهم؟ هل تمكنتم من الأكل..؟
- أخفض ساند عيني، ثم مسح فمه بعصبية ورمى منديله فوق المائدة.
- خذا علما، (قال كمن يشتم)، في حال فكرتما باصطحاب أحدهم..
- وقبل أن يختفي، أضاف:
- ملجأ ديلبييرو مغلق منذ ثمانية عشر عاما، لم يبق منه سوى الأطلال.

ليلة مناوبة

- هذه من أجل ميت. همس الصوت في الممر.
- حسنا، أزلقها من تحت الباب.

كم الساعة يا ترى؟ عبر نور مزرق من تحت الستائر الممزقة؛ كان مصباح الشارع المقابل لغرفتي يصيرّ على إضاءتها. في كل الأحوال، لم يلح الفجر بعد، الشراشف من حولي رطبة، الشراشف.. كلمة مفخمة حقا للدلالة على أغطية المعونة الشعبية البسيطة، المغلية والمعاد عليها في الفسّالات الجهنمية، تستخدم بحسب الأيام، إما لفرش أسرة المرضى وإما لتغطية موائد غرف المناوبة، يبرز بياضها زيادة على ذلك آثار الدماء والنبيذ التي قاومت التنظيفات حتى صارت الممرضات يدعونها بقعا نظيفة.

- مررتها لك. قال الصوت.

وفي الحقيقة، في الفرجة التي تفصل الباب عن الأرضية، شاهدت ورقتين مجعدين تنزلقان. حافي القدمين، ملفوفا بغطاء خشن، ذهب حتى الباب، انحنيت والتقطعت الوثائق.

- هل تعرف إذا كان فعلا مات على الأقل؟ قلت وأنا أنتائب.
كانت يدي في الوقت ذاته تجسّ الرداء المرمي فوق كرسي تبحث عن قلم حبر داخل الجيب.

- ميت ثلاث مرات وليس مرة. قال جويستان صبي الصالة هازئاً، في الجانب الآخر من الباب.

لكنني أعرف أنه كان يصلّب بيده على وجهه بصمت. لا يحب الأنثيليون المزاح بموضوع الموت، هم يخشون الفأل السيئ، ولدى جويستان أسباب معقولة كي يخاف، في النهاية، حين يقبل أن يدعني أوقع على هذه الأوراق دون أن أتحرك من مكاني، فهو يخاطر ويشاركني الخطأ. على جانبي الباب، كان هذا السر الصغير يربطنا.

ها هي الأوراق الآن مفرودة على الطاولة، مسّدت لها لأزبل. تجعيدها، كان سطحها لمّاعاً على نحو خفيف، انزلق رأس قلم الرصاص وأنا أملأ الفراغات المشوّمة لـ «بطاقة الصالة» التي يُنعم بها على المرضى الداخلين المشفى بجواز المرور هذا الذي يخولهم لكل الرحلات بما فيها الرحلة الأخيرة، ويكرس تخليهم عن ترهات هذا العالم؛ ثمة فراغ تكتب فيه أشياءهم الشخصية وبعض الأغراض القيّمة (مال، ساعة، مجوهرات)، كانوا قد جردوا منها، الباقي اسم، أحياناً مهنة، وبشكل خاص رحلة من جناح إلى آخر تودي بهم إلى النور والشفاء حيناً، أو نحو المرفأ المشوّوم كما يقول الأقدمون حيناً آخر.

تخطّ يدي: «اليوم الخميس، الثالث من تشرين الثاني، في...».

- كم كانت الساعة بالضبط حين مات؟

غمغم جويستان من الجانب الآخر للباب.

- أنت تعلم ما يكون عليه الأمر، (قال متضايقاً)، تأكّدت عند

تبديل الورديات.

تشير الحالة المدنية للمريض إلى أنه «ولد في 1898»، فهمت:

عجوز معمر، لا شك أنه لم يكن يتحرك كثيرا ولا يبدي حياة إلا من خلال تأوهات لحظة العناية به، ليس نادرا في هذه الحالات أن يكتشف موته متأخرا، حين يصل فريق جديد ويقوم بجولته. كل شيء طبيعي وحسب في النهاية، وإلا ما كنت لأمارس هذا النوع من التوقيع عن بعد حتى الآن، تفرض علي أدبيات المهنة ألا أسجل أي حدث، أو أشهد على شيء، وبالأخص الوفاة، دون أن أكون على اتصال مباشر مع المريض، أو أن أكون إلى جانبه وفحصه، لكنني كنت أعرف أن الكثير من زملائي (إن لم أقل جميعهم) يفعلون العكس من وقت لآخر، حين يكون الوقت متأخرا..

تعب المناوبة هو بمثابة إكراه مفروض على الذهن والجسم، حين تهض ثماني مرات، مثلي في تلك الليلة، كي تذهب عند سرير مريض لديه أزمة ريو، وآخر عنده حائتي سقوط، وآخر لديه انسداد رئوي، وعدة نوبات ضيق تنفس، تتمسكك ثمالة حقيقية، تشعر كأنك بائس، قذر، واهن، مشاعر العوز النفسي والجسدي هذه، تخلق انطبعا باللاجدوى يجعل أي عمل، أي تدخل، أو أي رأي لا فائدة منه، إنها اللحظة التي يتربص الدنيء «ماذا ينفع؟» التي قتلت الكثير من الناس في العالم، إنها ساعة الخطر الأعظم التي يتوانى فيها الحذر ويمكنك أن تقترب أخطاء قاتلة. لحسن الحظ، نتعلم بسرعة مقاومة هذه الإغراءات، في أوج التعب، احتراز أخير يجعلك لا تزال واعيا لهذا الخطر، ويبقى الذهن رغم كل شيء في حالة تأهب أمام المريض، أمام المريض ربما، إنما أمام ميت؟

«الثالث من تشرين الثاني، في الدقيقة الخامسة عشرة بعد منتصف الليلة...»

وقع اختياري في النهاية على هذه الساعة المحتملة، مع ذلك، بقية الصيغة لا تأتي.. في لحظة كتابة الكلمات النهائية، تلك التي تمنح لهذا الرجل نهايته مثلما منحته أمه الحياة ذات مساء ربيعي، في الرابع والعشرين من أبريل 1898، خانتني القوة، منتهى الصفاقة أو الإنهاك، الاثنان في الحقيقة.

- انتظرني لحظة، (ناديت جويستان)، أنا قادم.

- حسنا، (قال الصبي مندهشا قليلا)، لكن تعال بسرعة.

أراه يضرب الأرض بقدميه في المدخل المتجمد (كان باب بيت الدرج قد انخلع ذات مساء ولا يزال يضرب عند كل هبة رياح)، لا شك أن هذا الذي يخرج من فمه بخار، هو أيضا نفس ويشعر بالبرد، لكن على الأقل ليس لديه واجبات، في تلك الساعة غير المتوقعة لاتخاذ قرارات فادحة، تخيلته سعيدا.

ارتديت وأنا في غاية النعاس ملابسني المدنية التي تصبح في المشفى لباسا داخليا؛ تبقيني دافئا لكنها لا تُرى، اللباس الحقيقي هو القميص، تقوم المرأة الغسالة بتسليمك واحدا منها كل أسبوع، تختار لك المقاس وهي تفهقه: «كفأك عريضان جدا يا صغيري!»، كان يحق للطبيب الداخلي في ذلك الوقت ارتداء مئزر. رفضت على الدوام ارتداء أحدها، على الرغم من أنه مريح، لا بل أنيق كما يبدو. أن تقحم يديك في الجيب الكبير المغلق من الأمام، كنت أرى دائما أننا نبدو، من دون اليدين، مثل جزار، ومعهما مثل كنفر.

الترف الحقيقي هو المعطف، لا يحق للأطباء الخارجين به؛ أطباء الداخلي وحدهم يسمح لهم باقتنائه، هكذا يصبح علامة الدخول إلى قدس أقداس الفرسان الرهبان، معطف ثخين من

اللباد الكحلي اللون يطول أحيانا حتى الكاحلين، الياقة مستديرة، ارتديته في تلك الليلة الشتوية وأتاح لي الشقان على جانبي الخصر إبقاء يدي في جيب القميص.

ها أنا ذا أسارع بالقرب من جويستان، كان المطر البارد قد توقف، لكن المزاريب ما زالت تتسكب، قفزنا فوق البرك الصغيرة. لدى وصولنا عند أسفل البناء الذي ينتظرنني فيه المحتضر (أو المتوفى، أنا من سيقدر ذلك)، وجدنا الأبواب مغلقة، كانت النوافذ في الطابق العلوي مظلمة، توجب علينا الدوران ورّج أبواب سرية كانت مغلقة أيضا، توترت أعصاب جويستان، صاح، بعد لحظات طالت، فُتحت نافذة في الطابق الثالث ونزلت إحدى مساعدات الممرضات كي تفتح لنا، فتاة غوادولوبية بشرتها فاتحة جدا، لم تتوقف عن الابتسام حتى أثناء تعنيف جويستان لها بلغة الكريول، سبق لها أن سمعت منها لكنها تجاوزتها في الحال بإجبارنا على «عدم السير في الأماكن المبللة»، بيدها اللابسة قفاز الكاوتشوك الوردي، أشارت لنا إلى نهاية الممر الذي نظفته بممسحتها، والذي لا يزال بلاطه يلتمع لبضع لحظات، المشفى قلب لا يتوقف عن الخفقان أبدا، الوقت لا يزال ليلا ويتم تنظيفه لليوم التالي، ينتظر المرضى الفجر كي يغتسلوا. الآن دور الممرات، قمنا أنا وجويستان باستدارة لعبور المنطقة المبللة، الآثار الكبيرة لم تكن أقل، بثس المصير؛ المهم أننا أظهرنا نوعا من المراعاة تجاه عمل الآخرين، ابتسمت المرأة بتأثر.

بدأنا بارتقاء السلم داخل ما يبدو كاتدرائية هائلة معتمة، تضيئها بغموض الأنوار التائهة لمصابيح الشارع الخارجية. في الطابق الرابع، أرشدت طريقنا همسات ويضعة خيوط من

أشعة المشاعل. يشق علي اليوم رواية هذه الذكرى لأنها تقذف بي بدهيا إلى زمن الديناصورات، مع هذا، والحق يقال، كانت مشافي باريس في تلك الحقبة (وأنا أصرّ على عدم رؤيتها بالبعيدة جدا...) لا تزال تنتشر فيها الغرف المشتركة بشكل كبير. عشرون سريرا مصفوفة على طول الجدار يفصل بعضها عن بعض مسافة ضيقة تتسع لمناضد الأسرّة، إذا كانت المشعات تدفئ لا بل تفرط في تسخين الهواء الجاف، ذلك لأنها حلت محل مدفأة الحطب الأثرية التي يمكننا تخيل خيالها الأسود وسط الغرفة.

احتضار البعض في هذه الأماكن المشتركة لا يبدو يعطل راحة الآخرين، هذا إذا لم تضأ الأنوار للقيام بمراسم العلاج وطقوس الموت.

كانت الممرضة التي استقبلتنا فتاة جميلة، تمسك بيدها مصباحا، تحرّك حزمة الضوء في كل الاتجاهات، ومن حين لآخر تتوه بعض الأشعة باتجاه وجهها، كانت ملامحها مشدودة كهؤلاء الذين فقدوا مأوى الليل دون أن يجدوا الراحة الفعلية خلال نهارهم.

- آه، لقد أتيتما، قالت.

لا عاطفة ولا تمييز في تلك الكلمات، شعرت فقط بأنها تصنّفني في خانة غير المرثيين، وشعرت بأن الحمرة علت وجهي. أخذتنا عند طرف السرير.

كالعادة، يكون الحقل المغلق حيث يجول الموت محاطا بالحواجز؛ حواجز قماشية، استعملها الوحيد الإحاطة بالسرير، رسميا، تستخدم لإعفاء المرضى الآخرين من رؤية المحتضر، لكنني غالبا

ما تساءلت إذا ما كانت بالأحرى مخصصة لتعلم المريض بالمصير الذي ينتظره، كل من يجد نفسه فجأة محاطا بأقمشة الكرب البيضاء تلك المفرودة بشكل سيئ فوق حاملات فولاذية، يشعر بأنه غادر سلفا مكان إقامة الفنانين، وأن قوة رهيبة سوف تأتي عما قريب سعيا في طلبه إلى مقام الأرواح البررة ذاك.

في اللحظة التي وصلت فيها، خرجت من خلف الحاجز امرأة أخرى تلبس الأبيض، هي أيضا كانت ترفع مشعلا، تحمل على جنبها ربطة مفاتيح ضخمة تدل على أنها ملكة خلية النحل هذه، يرتجف أطباء الداخلي أمام تلك المراقبات الشيباوات، كن يعرفن عن المريض أكثر مما نعرف نحن، وصمتن بينما نقوم بفحص المريض يذكر بحكم أكثر القضاة قسوة للقلوب، بالأخص إذا ما ارتسمت في الوقت ذاته على شفاههن ابتسامة غامضة.

حاليا، لم يحدث شيء من هذا، كانت تلك المراقبة تتكلم، وكى تظهر سلطتها، تفعل ذلك بصوت عال تقريبا.

- اذهبي وأحضري الملف. طلبت من الممرضة الشابة.

عادت الفتاة ومعها مغلف ثخين محشو بالصور الشعاعية والأوراق المتطايرة ونتائج التحاليل، بحثت عن بيان المراقبة الطبية.

- إنه هنا منذ اثنتي عشرة سنة. قالت المراقبة.

اثنتا عشرة سنة! لا شك أنني بدوت مندهشا رغما عني، لأنها استأنفت:

- هنا قاعة الإقامات طويلة الأمد.

رفعت وجهي لحظة؛ يمكن رؤية الدعامات في السقف، كانت القاعة أشبه بسقيفة تكوم فيها المرضى المحكومون بالالشفاء،

كنت قد سمعت الحديث عنها لكنني لم أزرها قط، في الحقيقة لا شيء يميزها عن غيرها عدا نهايات أطراف الأسرة ربما وذلك الشيء غير المرئي: الزمن، الزمن الذي مضى داخل تلك الجدران، مثل كل الغرف المشتركة، هي مكان للأنين والروائح، يعقد الاختلاط فيها روابط صداقة مولعة، أو على الأكثر، كراهية بغيضة، تكون الأخيرة مصدر ارتياح حيناً، أو مصدر عدوى حيناً آخر، الجار مصدر ابتسامة وحديث لكنه بصاق وبول أيضاً، هل تترك اثنتا عشرة سنة في هذا المغطس أي شيء حي في كائن ما؟ تركت نظري يجول فوق صفوف الأسرة، راودني الشعور فجأة بأن كل شيء خاص في هذه الغرفة، لا نشعر بذلك الفضول الطبيعي الذي يجعل بقية المرضى يرقبون حشرجات الاحتضار، لا يوقظ وصول طبيب أي اهتمام، الأصوات التي تسمع هي أصوات اللاوعي والخبل الكيماوي، لا يوجد هنا سوى غيبوبات، آلام لا شفاء منها، أموات ولكن يعيشون.

أعود للمريض لأكتشف في فوضى الملف، التقرير الطبي، حادث خطير فقري وعائي، حياة على جهاز التغذية أو ما شابه، صمت كامل، لم يتمكن أي طبيب سريري من أن يقيم بدقة درجة الوعي التي أبداه المريض.

آخر ملاحظة مسجلة باليد، حدوث التهاب شديد يعود تاريخه إلى أكثر من خمس سنوات.

- هل تريد رؤيته؟ سألت المراقبة.

رفضت استبطاء هزة في تلك الكلمات، واقتربت من الحاجز، كان جلياً أن كل شيء معد لما بعد، كانت علبة المعدات الطبية

والحقن قد أفسحت مكانها لدلاء وفُرش التنظيف، كان يُستعد للعناية بالجثمان، لكن لم يلمسه أحد حتى الآن، كان يحيط بي خمسة أشخاص، دون أن أحصي المرضى في الظلمة، والجميع عيونهم معلقة عليّ. أزيح الستار، المريض مغطى بشرشف بما فيه رأسه، تقدمت، لم أشعر قط إلى هذه الدرجة بثقل هذا الطقس الليتورجي الصامت. هذا المساء، كل شيء سيتضح، أنا من سيمنح الموت.

بحركة فجائية، كي لا أبدو بأنني أرتجف، رفعت الغطاء، ظهر الجسم بألمه المطفأ، نحيلًا، شمعي اللون، دميم الوجه، الرجل هو من أولئك الذين نقول عنهم حين يأخذهم الموت: «لقد خلص». أن يكون قد قضى هذا لا يترك أدنى مجال للشك لدى أحد، رأت المراقبة الكثير من المرضى يموتون، الممرضة الشابة أيضًا، الممرضة المساعدة غسلت أجساد أكثر ممن ينام من مرضى في هذا المشفى، وجوستان الذي حملهم على نقالات يعرف كم يَزِنون، أنا الذي لا أزال في الثالثة والعشرين وثلاثة أشهر في الطب الداخلي، أجهل تقريبًا كل ما يتعلق بماهية الموت البشري، انتابتي رغبة للحظة أن أقول: «لماذا أزعجتموني؟ تعرفون أفضل مني بأنه مات».

جعلني الصمت أبتلع كلماتي، لا مجال للتراجع، هم بانتظارى، هذا ليس بفتح ولا بانتقام: استدعيت للقيام بواجب لن أعرف التملص منه.

الموت في فرنسا ليس له تعريف واضح، يفرض القانون إجراءات لإثبات صحته: القصد الشرياني الطولاني هو الأكثر إثباتًا، يتم ذلك بقطع شريان المعصم باتجاه طولاني والتحقق من

غياب أي نزف نبضي، من غير المفيد القول إن هذه الطريقة لا تطبق أبداً، بالنتيجة يركز كل شيء على كلام الطبيب، له فقط يُعترف بالقدرة على إثبات الموت، هناك وازع لدى النصارى يمنعهم من الاحتفال بالقداس بمفردهم؛ يلزم كاهن للقريان المقدس.

هكذا أنا، الغر، المحبب ببثور حب الشباب، عديم الخبرة بالكبائر، أمام كل هؤلاء الناس المتمرسّة على الصعاب، ممسوح بزيت ميرون غير مرئي يجعل حركتي منتظرة، لا.. بل لا غنى عنها؛ أنا ذاك الذي بوسعه أن يجعل من ذلك الرجل ميتا حقيقيا، ولأبد، «أنا، لويس، ملك فرنسا، أقرر..»، هكذا كانت الملوك تتحدث إلى رعاياها الذين يتحكمون بحياتهم. هذا المساء، جعل مني القانون ملكا على هذا المكان البائس، لخدمة فقير له رغبة أخيرة بأن أمنحه موتا.

يتشكل المجتمع الطبي في فرنسا من طبقة مغلقة، أركانها العليا منذ عهد نابليون أطباء المشفى الداخليون، يتم انتقاؤهم بحسب جدارتهم، على الرغم من أن لكان ولا دتهم أهمية على الأقل أثناء وقت المسابقة، وعلى أقل تقدير من أجل المهنة في وقت لاحق. الطب الداخلي شرف نحلم به طول العمر، يفتح المجال لأعلى المهام الطبية، يحمي ويكافئ ويستوجب، يفرض بشكل خاص ارتداء لباس التضحية، مهما كان صحيحا ما نشعر به، لكن يجب عقد العزم إما على التمسك بهذه الوظيفة وإما الاستغناء عنها.

لكل سر مقدس طقس خاص به، بما أن القانون كما رأينا لا يقول شيئا عقلانيا عن الموت، توجب ابتكار شيء ما، حركة تفرض على المحتفل بالقداس دورا، تعطي للساحر شيئا شبيها

بالعصا، عثرنا على الارتكاس القرني.

وسط هذا الصمت المخيم، قربت يدي من الوجه المشووم، رفعت جفنا ووضعت سبابتي على القرنية، غياب رد الفعل يدل على إبطال الارتكاس القرني، ذلك الذي لا تبلغه أية غيبوبة مهما كانت عميقة، نستنتج منها بأنه الموت.

الحركة ليست فقط ناجعة؛ إنها استعراضية، يقوم الطبيب للمرة الأخيرة بإعادة فتح عيني المريض، يعيد له نظرة للحظة، كي يقرأ فيها تأكيد قضائه، يصدّق المنتهك بأن الموت قد تم حين تغلق العينان. أما الطبيب فله حرية التصرف بعكس هذا الاتجاه المتعارف عليه، تجد المأساة في هذا التصرف موقعها بشيء من العظمة.

هكذا، يمكنني الآن أن أكتب:

«في الثالث من تشرين الثاني وبعد ربع ساعة من منتصف الليل، السيد أ.ك. المولود في 24 أبريل 1898 توفي».

لكنني استغرقت وقتاً طويلاً لإبعاد الرائحة الخفية والعالقة على عيني المريض، اليوم وبعد عشرين عاماً، لا يزال يحدث لي أن أشمها.

عشاق لورنسو مارك

ثلاث مرات عاودت إغلاق باب البيت، كنت لتسخري من رؤيتي أدخل وأعاود الخروج أتأكد كالمهووس بأن كل شيء في موضعه، بدت لي جلود الكودو معلقة على الجدران بشكل سيئ، وهناك بقع تلمخ عارضات الأرض الخشبية الحمراء.. ولكن لا، كل شيء جاهز، كل شيء ينتظر وصولك.

كان يجب النزول بضعة أمتار عن الرابية التي بني فوقها المنزل لبلوغ المرائب، يتعرج الممر بين صخرتين صلدتين ضخمتين شبيهتين بفيلين أحمرين بلون الرمان، لون أفريقيا. هذا الصباح، وبسبب عواصف الليل، تطفو على هذا الدرب رائحة خشب ننتة، كان التراب الأحمر الذي لا يزال رطباً مجدوراً بحفر صغيرة حفرتها قطرات المطر على سطحه، وفي كل الأنحاء، كان الأخضر الزاهي لأعشاب السافانا يقابل زرقة السماء الصباحية. في هذه الساعة، كان يمكن الرؤية حتى البحر من منزلنا (منزلنا ١٠٠)، تحت خط الأفق تماماً يبرز في البعيد خيصال العاصمة، بمبانيها وبيوتها الواطئة، ولكن بعد ساعة من الآن، حين تصبح الشمس في مكانها، أي ثابتة تماماً فوق رؤوسنا، يغطي النور كل شيء بتوهجه.

ارتعشت قليلاً لدى صعودي إلى سيارة اللاندروفر، بسبب المقاعد الباردة دون شك، لكن لدى رؤيتي للمدينة من بعيد،

فكرت بأنك ربما تكونين هناك منذ الآن.

هل فكرت غالباً مثلما فعلت هذا الصباح بوصولنا الأول إلى هنا؟ فوق جسر السفينة التي كانت تقلنا من «دوربان»، كنا نتطلع إلى المدينة عند الأفق أيضاً، ولكن من البحر، كان لدينا كل دواعي الخوف من اكتشافها، فاسمها جعلنا نحلم طويلاً؛ لم تكن تدعى «مابوتو» في ذلك الوقت، كانت لا تزال تحمل الاسم الاستعماري القديم الذي منحها إياه البرتغاليون؛ لورنسو مارك، كانت هاتان الكلمتان الملتحمتان تعداننا بالاحتفال بالعرس الأدبي والأسطوري للوران الرائع وفيرمينا ماركيز، كنا متحابين، فلورانس وفاليري لاربو، كانت تبدو تلك الرحلة التي طالت عبر أفريقيا الجنوبية تأخذ بنا نحو هذا المقصد الأخير والمقدر لنا. حدث ذلك منذ أربعين سنة وكان لنا من العمر عشرون.

قبل الرحيل، كنا قد أقمنا في أوروبا هذا الاحتفال البالي، الذي لم يكن بنظرنا سراً مقدساً، وليس له معنى الارتباط الأبدي؛ كنا نخطب، فوق درابزين السفينة الملوّث بالشحم القذر، عندما كنت أضغط على يدك الرقيقة كنت أشعر بسرور وأنا ألمس الخاتم الذي قدمته لك، كان مزينا بماسة، صغيرة مثل إمكانياتنا كطلاب، لكنها صلبة، لامعة، وصادقة لا تبلى مثل حبنا.

لحسن الحظ علا صوت هدير اللاندروهر، وغادرتني هذا الشعور الأحرق برقة القلب، شغلت دون تفكير مساحتي الزواج فمدّنا فوق الزجاج أمامي حجاباً ثخيناً من الغبار اللزج، توجب علي الخروج وتطهير الزجاج العمودي. أخيراً، عشقت مقبض السرعة دفعة واحدة بذراعي الأيسر، في الواقع، هل تذكرين؟ يقودون في موزمبيق على اليسار، التأثير الإنجليزي.. قرأنا

كل ذلك حينذاك؛ في نهاية القرن التاسع عشر، لولا احتكام الجنرال بقي من الحكاية اسم البيرة المحلية ماكماهون الشهيرة، التي تسمى م.م وتلفظ: «إم»، وتنتشر بوفرة في البلاد.

عبر درب محفر، وصلت إلى الطريق العام، ذاك الذي يوصل إلى مملكة «سوازيلاند» الجبلية، لا تبعد الحدود سوى ثلاثة كيلومترات، لكنها مغلقة بسبب الأشغال التي لا تنتهي. مررنا من هنا معاً منذ أربعين سنة، وأردت أن تتساقى تلك الهضاب المشمسة، لم تكن هذه المنطقة في العهد البرتغالي تختلف كثيراً. موزمبيق من الاتساع لدرجة أنها لم تزرع كلها قط، كان لها على الدوام حتى من هنا، تلك الصورة الصغيرة لفلاة وافرة الخيرات ومهملة في الوقت ذاته، طبيعية بالمجمل، مع ذلك، لو نظرنا جيداً على طول هذا الطريق الذي تحف به الأجمات الوادعة، لأمكننا أن نرى آثار كل المآسي التي عاشتها تلك البلاد خلال أربعين سنة، سوف أريك مزارع برتغالية كبيرة مهجورة؛ صدئت فيها الأعمدة المعدنية للممرات، وأضحت النباتات الجهنمية والياسمين والستارية المتعرشة برية من جديد تندفع منقضة على زخرفات الأرابيسك. شاهدنا كل هذا منظماً في الماضي، عائلات المستعمرات شديدة النظافة وشديدة التقوى وشديدة البياض تسود على أملاكها الواسعة، والسود ظاهرياً خائفون لدورهم كزمرة خدم أو كدواب، بفارق حرف يصبح «الساكن الأصلي» «مخزياً»⁽¹⁾، هنا اكتشفت ذلك.

مذ ذاك رحل المستعمرون وتركوا وراءهم حرباً أهلية قاتلة، رودوسيون وجنوب أفارقة، صبوا الزيت فوق النار بوعي منهم،

(1) الفارق بين كلمتي «indigene» et «indigne».

ولكن هذه المرة لم يكن هنا ماكماهون كي يوقفها، دام الرعب خمسة عشر عاما. من هذا أيضا يحتفظ «شارعنا» بالأثر، في الطريق إلى مابوتو تعبر سكة حديد غالبا ما قصفت، وسوف تتمكن من رؤية قطار يشق طريقه داخل نهر غزته التماسيح. تذكرت كل هذا بينما كنت أتعرج في آخر المنعطفات المؤدية إلى الطريق السريع، ابتكار جنوب أفريقي أيضا، والذي يصل حتى جوهانسبورغ، منذ عودة السلم، عادت مابوتو وأصبحت المنفذ الطبيعي لترانسفال، لمعادنها الخام وفحمها ورجال البوير ذوي الرؤوس الحليقة، الموزمبيقيون أنفسهم يأتون حتى «نيلسبروت» من أجل التسوق في مراكزها التجارية الكبيرة على الطريقة الأميركية، ولكن هناك على جانبي الطريق الفائق الحداثة، حيث يدفع رسم المرور بالبطاقة الزرقاء، تسير نساء بالجلابيب يحملن السلال فوق رؤوسهن.

يفدو المنظر بعد ذلك مسطحا كليا. على الجانب الآخر لمجرى النهر ينبسط الساحل الرتيب ممتدا حتى جزيرة «إنهاكا»، تمتد وراءها محمية الفيلة الكبرى، منطقة لغمت على نحو قذر وقت الحرب وبقيت خطرة إذا ما ابتعدنا عن الطريق.

«إذا ما ابتعدنا عن الطريق»، شيء مضحك كيف يستطيع الذهن أن يلتف حول عبارة، قلبت أوجهها حتى بلغت مدخل المدينة، رحت أفكر بالانعطافات التي عرجت عليها خارج هذه الطريق منذ أربعين عاما، في العام 1963 كنت عازف كمان فتيما بارعا مثل مقلد مدرب رياه أهل عاديون مع أنهم عبروا أوروبا المشتعلة من بلدهم الأم روسيا، وكنت أنت فرنسية خالصة وشاهدت دون شك آخرين غيري، فقد كنت تدرسين الأدب.

كان رأسك دوما بين الكتب التي منحتك كما بدا لي حينذاك،
نضجا كبيرا، كنت تتحدثين عن الحب بخبرة آلاف الصفحات،
لم تكن الموسيقى مجالك، ومع هذا أثرت بي بطريقة حاسمة،
المقتضيات التي فرضتها علي ربما أنقذتني، أولها، كانت لديك
القدرة الكافية لعدم التصفيق لي فقط، بل لتجعليني أشعر
بضعفي وحدودي وأنبذ كل الأسباب السيئة التي أجدها كي
لا أكون أفضل. بفضلك لم أجد عن طريقي، تبعته من فيلادلفيا
حتى ملبورن، مرورا ببيرن وفرانكفورت، وأخيرا باريس، امتهنت
العزف المنفرد في أكبر الفرق الموسيقية، لم أصبح مشهورا ولا
غنيا، لكنني تمكنت من أن أعتاش من فني ووهبت له نفسي
بشكل كلي.

عندما أرسلت لك في العام الماضي مجموعة تسجيلات لي،
سررتُ جدا حين علمتُ بأنك اشتريتها أولا فأولا تبعا لظهورها،
تتبعت تقدمي تماما كما تتبعت تقدمك بقراءتي كل كتاب من
كتبك.

أنسا المخبول من ضجيج اللاندروفر، لم ألحظ فورا بأنني
دخلت المدينة، «مابوتو» ليست جميلة سوى من البحر، قليل القول
إنني لا أحب الاقتراب منها هكذا من الداخل، من ظهرها نوعا
ما، إذا لم نعبر بين الحين والآخر أذرع مصبات الأنهر الصغيرة
التي تمتد نحوها جسور الصيادين الضيقة، تبقى ضاحية مابوتو
ككل مدن العالم الثالث، ليست أكثر من مزيلة أو برصاء، بيوت
واطئة حيث تختلط أكواخ أفريقية بواجهات المرائب، جدران
مصمتة لمحترفات ومستودعات غلال تراثية تزاحم المكان على
ريف مشوه، أشجار موز متشعبة تنادي للمساعدة وهي تخفق

بأذرعها الخضراء، لكننا نعرف جيدا أن القضية بالنسبة إليهم خاسرة، كلما تقدمنا أكثر تصبح المباني أعلى. في المركز، داخل المدينة العالية، تحف الجادات المستقيمة الجميلة أشجار العندم الهندي والأكاسيا، نشعر بأن النباتات تتخذ هيئة الاستعداد على طول الأرصفة أمام المنازل الاستعمارية الجميلة، هذه هي مايبوتو العصر البرتغالي العظيم، مدينة رحلتنا الأولى.

عندما سلكت باتجاه جادة ماوتسي تونغ، فكرت بأنه سيتوجب علي أن أشرح لك قليلا عن أسماء الشوارع.. عندما رجعت للاستقرار هنا، ظننت بأن الحكومة كانت ستغيرها في الوقت نفسه الذي تركت فيه الماركسية واللينينية، كان ذلك سوء تقدير مني لجمل هوية هذا الشعب الرائع.

كان الموزمبيقيون وهم يفكرون بصياغة وعي وطني في هذه البلاد المتعددة الأوجه التي طال أمد اختلالها، يحافظون بتأثر على كل ما يمكن أن يشكل جزءا من تاريخهم، نجد هنا شارع مارك دي بومبال تكريما للبرتغال، جادة نكروما بطل الاستقلالات الأفريقية، جادة إدواردو-موندلان الأب الروحي لضريليمو، وكل مختارات الوجوه الماركسية التاريخية، ولكن في هذه البلاد التي هي منذ الآن التلميذ النجيب للـ FMI صارت الليبرالية في كل مكان؛ فجادة كارل ماركس تعج بسيارات التويوتا، أما بالنسبة للأميركيين فمركزهم الثقافي يقع عند تقاطع جادة ماوتسي تونغ وجادة كيم إل سونغ.

هذه المدينة تشبهنا بالتأكيد؛ تخطيط الشوارع ذات الزوايا المستقيمة يمنحها مظهرا عقلانيا، لكنها تضم أكثر المباني غرابية، شاهدة على أخطاء الماضي وآماله. اليوم، كل العالم

يحاصر، سوف أريك ناطحة السحاب الصينية بسطوحها ذات الزوايا ترتفع على شكل أبراج المعابد الصينية.. تتفجر المدينة بازدهار لا يخلو من الارتياح.

على طريقتي، أشكل جزءا من هذه الحقبة الحديثة، فلقد وصلت دون أن أتوقع في ذات اليوم الذي وقعت فيه المصالحة الوطنية والسلام، لم يكن لذلك أهمية كبرى بالنسبة لي، فلقد كان لي سياق آخر للسلام، شخصي أكثر وحميمي أكثر هو الذي كان يقودني إلى هنا، كبر أولادي، وكما تعلمين أنا جد لحفيدين، صار الكمان أقل فأقل طاعة لأناملي التي خدرها الروماتيزم، وكلمة حق تقال، أشعر بأنني تحررت منه، لم تبقى زوجتي معي إلا من باب العادة أو اللباقة، آن أوان الاعتراف بأننا لم نتحاب قط، حينئذ، قررت ببساطة أن أرحل.

لم تكن الرحلة هذه المرة مثل الأخريات، إنما عودة، كنت أجهل السبب لكن الأمر البدهي هنا أن هذه المدينة التي لم أرجع إليها قط ومع ذلك، كانت بانتظاري، شعرت فيها بأنني في بيتي، واشترت ذاك المنزل عند التلال وكأنه كان مقدرًا لي بشكل طبيعي.

حين وصلت إلى ساحة الاستقلال لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة بعد، قررت ركن اللاندروفر وإكمال الطريق مشيا على الأقدام. المبنى الهائل ذو الأعمدة لقصر البلدية المطل على الساحة هو النقطة الحساسة للمدينة العليا، من هنا يمكن سلوك طريق الشاطئ هذا المنتزه الساحلي الطويل الذي تحفه أشجار جوز الهند حيث ذهبنا إليه مرات عديدة ننتزه في المساء، هذا أكثر حي تغير، أصبح مزروعا بالفيلات الفخمة والفنادق ذات

الإطلالة الرائعة على البحر. هناك منزل مانديلا، يأتي ليقضي فيه بضعة أسابيع طوال مع الأرملة سامورا ماشيل، سوف آخذك إلى النادي المائي الذي تعرفينه ويحتفظ بسحره قديم الطراز من خارج الزمن.

من البلدية سلكت إلى جادة أخرى، تلك التي تؤدي إلى الداخل، مارا أمام الماخور القديم الذي أصبح مركز الثقافة الفرنسي. عبرت الحديقة العامة بيركتها المسماة wallas وممراتها المربعة الأوروبية الطراز، تعلو أشجار النخيل إلى درجة تنشر فيها فوق الأرض ما هو أكثر من الظلال، عتمة. وصلت أخيرا إلى الحي التاريخي الواقع على طول الميناء، مابوتو بجسدها البالغ والهائل الكبير تحتفظ في داخلها بالمضفة التي ولدت منها، حي البيكسا هذا الذي لم يتكلف أحد العناء لهدمه أو لترميمه، تلك المؤسسة التجارية الأولى عبارة عن أربعة شوارع بأرصفة محفورة، تيجان أبواب مثلثة الشكل يغطيها حجر الزليج، شرفات قديمة بدعائم، في كل لحظة تتوقع أن يخرج إليها بعض من المثاليين والكادحين، مبشرين وباحثين عن الذهب جاؤوا للعثور على الثروة في هذه البلاد الواسعة جدا بالنسبة إليهم.

في البعيد، عبر فتحة حوض السفن، أشاهد البحر الملون بالطمي، مطر الأيام الأخيرة جعل الأرض أكثر اخضرارا والبحر أكثر حمرة.

وصلت أخيرا إلى ساحة الرابع والعشرين من حزيران، تلك التي تطل على الميناء ومحطة القطار، المكان الذي جرى فيه كل شيء معنا، أعلى سلم المحطة وتحت تلك القبة المحرشفة التي تعلوها كسرة الإمبراطورية البرتغالية متداخلة الحلقات.

انفصلنا، ها قد مضى أربعون عاما، يشق علي رواية ما جرى، الحق يقال، أرى اليوم في قرارنا المبالغت فعلا جنونيا، وأجد صعوبة بإعادة تشكيل المسار العقلاني الذي أودى بنا أنت وأنا للقيام بمبادرة غافلة إلى هذا الحد. كلما أمعنت التفكير فيها أرى أثر رومانسية كنت لأظنها تعود إلى سن الشباب لو لم تسكنني من جديد. هل كان ذلك هو الإشباع من حب لدرجة لم نعد فيه قادرين على أن نكون كاملين إلا في تلك اللحظة؟ هل كان ذلك فكرة صادقة، ذريعة، رهانا مجنوناً؟ الحقيقة هي أننا قررنا في ذلك اليوم أن نستعيد حياتنا.

لم تشائي أن تقضي عائقا مهما صغر أمام المهنة التي تؤمنين بأنني مقدر لها، «لا أريد أن أسجنك داخل بيت من حديد» قلت برقة، وأنا لم أشأ أن تحرمك جهودي وتضحياتي وغياباتي من الحب الكامل الذي آمنت بأنك تستحقينه.

ثمة ما يدعو للابتسام، ربما سيبدو هذا غير معقول. مع ذلك، اتخذنا هذا القرار المفطر للقلب والرائع، اصطحبتك إلى هذا الرصيف، جلست داخل المقطورة الخشبية ورفعت حقيبتك الجلدية إلى الرف فوق رأسك، تبادلنا قبلة طويلة للمرة الأخيرة، ثم نزلت إلى الرصيف، كان فستانك الأزرق يشكل بقعة زرقاء وسط عمال المناجم بأسمالهم الرمادية الرثة، يذهبون لبيعوا أنفسهم في «ترانسفال». شاهدت القطار يرحل، بعدها، سرت في المدينة هادئا على نحو غريب، فارغا تقريبا، غير عارف إن كنت سأسعد من جديد.

لا أنت ولا أنا، لم نقوم بمبادرة لإزالة السحر، أن نتراجع عن الفرق، وعشنا حياتنا.

على جانب المحطة، وراء حاجز متأرجح، تطل قبطانية الميناء، ها أنا أتقدم الآن نحو ظلال أشجار المانغو، لا أحد هناك، قيل لي إن الركاب لم ينزلوا من السفينة بعد، لا أدري إن كان علي أن تسير الأمور معي ببطء أو أن أتعجلها، لأن الوقت قد أخذناه وربما لا يزال يلزمنا. حين عدتُ إلى هنا، كان ذلك معك، إنما بالحلم، كنت أشعر بأننا اشترينا سوية هذا البيت الذي لم تريه قط مع ذلك، مرت سنوات عديدة قبل أن أجرؤ على الوقوف في طريقك، وعلى اكتشافك، وعلى الكتابة إليك، بعد ذلك، وصل هذا الرد المذهل، تلك الرسالة التي قرأتها في أشد الفصول حرارة وأنا أرتعش؛ رحل زوجك، كبر أولادك، الرغبة لديك بلقائي.. هكذا ولدت تلك الحقيقة الجلية، بأنك مثلي، لم نفترق قط، وأنه بعد خطوبة طويلة إلى هذا الحد، أن الأوان ربما للتفكير بالاتحاد.

كان حوض السفن مستقيم الخطوط، عندما كنت أقترب من الحافة شاهدت في البعيد تجمعاً حول ممر سفينة الركاب، لم أجرؤ على التحرك، لكن الجمع الصغير كان يتحرك باتجاهي، الشمس حارقة تحت غيوم بلون الرصاص والشاطئ يرتعش من الحرارة في الجانب الآخر لمصب النهر، تتقدم خيالات، يبرز أحدها لابسا فستاناً أزرق، يلوح لي، هذه أنت. أنت في العشرين، وأنا أيضاً.

حارس الرداء⁽²⁾

المكان الذي روى لي ريتز فيه هذه الحكاية هو آسيا، وبالتحديد أكثر في كولومبو، كنا جالسين في مشرب فندق «غول فيس». عادة أنسى هذا النوع من التفاصيل، أتذكر هذه المرة المشهد كله بسبب حادث سخيّف. في ذلك اليوم، بينما كنت أسبح خافض الرأس مغمض العينين في بركة سباحة الفندق لامست، وعلى ما يبدو خدشت، سيدة إنجليزية بدينة كانت تتخبط بالقرب من السلم، رغم اعتذاري، ذهبت تشتكي لدى مكتب الاستقبال، النظرة الساخطة التي رمقتني بها وهي تخرج من الماء كانت تدل ما يكفي للقول: لو أن الجزيرة لا تزال مستعمرة، لكتّ ذقت طعم السوط أو الحبل. فضلا عن ذلك، لم تكن إنجليزيات بركة السباحة وحدهن من المخلفات الاستعمارية في «غول فيس»، كل ما فيه يفوح منه طيب رائحة الإمبراطورية؛ الخدم الذين يعتمرون العمامات ويمشون حفاة الأقدام، المراوح التي تخفق الهواء الرطب في الرواق، العشب القصير بأخضره الزاهي، يقلمه أطفال نحاف على قوائمهم مزودون بمقصات صدئة، ومع ذلك كان ريتز يحب «غول فيس»، رغم كل شيء، وأنا مثله.

(2) العنوان الأصلي للقصة: «Garde robe» ومعناها «خزانة الثياب» أما حرفيا يمكن التلاعب بالمعنى دون الخروج عن أصل المفردات، وقد ارتأيت عنوان «حارس الرداء» لملامته المغزى.

كنا نلتقي فيه كل مساء تقريبا، أضحت هذه العادة ضرورة لنا نحن العازبين المكرهين في هذا البلد النائي.

عموما، كنت أصل نحو الساعة الخامسة، أما ريتز فكان ينضم إلي متأخرا قليلا، على شاطئ سريلانكا الغربي ذاك، مناظر مغيب الشمس رائعة، من فندق «غول فيس»، كنا نرى الشمس تختفي داخل بحر بنفسجي يبدو امتدادا لشرفات الفندق المزهرة. في ذلك المساء، كانت السماء محملة بسحب طولانية ذهبية تتخللها الأشعة الأخيرة، كانت تمنح الضوء جلالا محيرا، وصل ريتز متأخرا، كان شديد الشحوب وطلب كأسه الويسكي منذ دخوله إلى البهو، بالكاد جلس حتى انزلق نحونا نادل ووضع الكأس أمامه، كان هذا النوع من العجلة استثنائيا تماما، ولشدة ما كان مناخ «آسيا السمر» هذه، كما يسميه علماء الجغرافيا (مناخ أخلاقي بقدر ما هو جوي) مناخا يعاكس كل تحرك، يرخي ويجعل الأكثر عصبية رائقا، لا بل نعسا تقريبا، كان عملي يساهم زيادة بهذا الجمود. كنت موكلا بمنح التأشيرات في القنصلية، مع تعليمات أن أمنح أقل ما يمكن، كان الكسل بالنسبة لي بطريقة ما، الشكل الأكثر بأسا للخضوع للأوامر.

أما ريتز فقد كان يفترض به أن يعمل أكثر قليلا، كان يعمل لصالح الأمم المتحدة، ويهتم بالضحايا المدنيين للصراع الدامي في الجزيرة، كانوا يستجدون به وقت الهجمات العسكرية في الشمال وعندما تضرب الاعتداءات العاصمة، عندما رأته مضطربا إلى هذا الحد ظننت أن عودة شرسة للتمرد حدث بلا شك لم أعلم بها، ولكن بعد أن اجترع كأس الويسكي الملآن، أخذني إلى اتجاه آخر:

- هل سبق أن قابلت راهوال؟ سألني.

- كبير خدمك؟

كانت كلمة «الصبي» تفوح منها رائحة أفريقيا نوعا ما، تفرض العادة على الجزيرة أن يمنح اسم كبير الخدم المفخم والقديم الطراز على الرجال الفقراء الذين يأتون للقيام بالأعمال المنزلية والكّي لدى الغرياء.

- رأيته مرة واحدة العام الماضي، أظن عندما ذهبت للعشاء في بيتك.

في ذلك الحين، كان ريتز قد وصل للتو واندفع في سياق الدعوات التقليدية، سياق كان يتوقف عموما بسرعة ويترك مجالا أكثر تحررا من الرسميات، مثل كأسينا في «غول فيس».

- نعم هو، لم أخيره.

كفالية المبعدين عن وطنهم الذين يعيشون بمفردهم في الجزيرة، فضّل ريتز توظيف رجل، كان ذلك يتيح له تجنب بعض التعقيدات التي كانت تظهر في الماضي، عندما كان العازبون يستخدمون خدما من النساء، كان طبّاخ الصليب الأحمر قد نصحه براهوال.

- ما الذي فعله راهوال هذا؟ سألت وأنا أبتسم ابتسامة ساذجة.

غالبا ما يبدو لنا هياج الآخرين أكثر تفاهة من هياجنا، ومن السهل مواجهته بوجه مشرق.

- من يرى وجهك، (أردفت)، يظن بأنه رمى قبلة في منزلك. هزّ ريتز رأسه برزانة:

- قبلة.. إذا أردت، تقريبا هذا.

حدقت في وجهه بدهشة، حتى الآن، لم أرَ وجهه يتخذ تعبيراً بهذا الألم، كان ريتير أكبر مني سناً، تجاوز الخمسين بكثير، ويتظاهر عادة بارتياح ساكن، كنت معجباً بترفعه وبهزئه وبسلاسة أحاديثه التي يعود الفضل فيها إلى مونتيني. مع هذا، ورغم ثرائها اليومية، كنت أعرف عنه اليسير، ما عدا أنه وصل متأخراً إلى منظمة الأمم المتحدة، بعد مهنة في الأعمال، أخبرني أنه طلق مرتين، يتبادل الرسائل مع أولاده الذين يتابعون دراساتهم في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

- ربما تستطيع أن تحدثني عنه أكثر قليلاً..

بعد أن طلب كأسين آخرين، بدا ريتير قد استعاد ذاته، انتصب في كرسيه الخشبي وغدا صوته واضحاً وصافياً.

راهوال نمرة حقيقية، أنت تعلم، يذكرني بحاجي بابا أصفهان؛ حيل ومراوغات دائماً، ومع ذلك بسلام لطيف، يستحيل أن تثق به ويستحيل أيضاً أن تحقد عليه فيما لو خدعك..

- تماماً مثل رافي في بيتي.

- يتحدث الإنجليزية بشكل جيد جداً، (أردف ريتير)، دون أن يبدو أنه سمع ملاحظتي، نتحدث كثيراً، إذا ما احتجت إلى شيء يصعب إيجاده، يعثر لي عليه ولا مثيل له في التعليق على الأحداث السياسية.

لا تسلم هذه البلاد من المأساة الشرقية، مأساة الدسائس والتحالفات الخفية والمؤامرات التي يتوه فيها الغرباء دون داع، بلاد كل ما فيها طلاسـم -ابتداء من كتابة لغاتها- وستبقى هذه الفورة البطيئة لحب الغموض سليمة، إلا إذا حدث بلحظة ما

انفجار سيارة مفخخة ليعطي لتلك المعادلات الصعبة حلا واقعيا جدا وشديد الدموية.

- هل هو مسالم؟ (تابع ريتير وكأنه يسأل نفسه) نعم، ومع ذلك لديه قابلية للعنف لا تصدّق، وربما دون علم منه، شاهدته ذلك اليوم يقطع عنق دجاجة بسكين صدئة، وأطال عليها عملية الحزّ هذه قرابة ربع ساعة، لا بل توقف كي يذهب للرد على الهاتف في حين كانت الدجاجة المسكينة لم تمت بعد..!

- هل هو آت من الساحل أم من الداخل؟ سألت، ليس بدافع الفضول أكثر من تذكير ريتير بوجودي.

- من الداخل، كانت أمه قاطفة شاي في الهضاب العليا، لم يعرف والده، أرسل وهو في السادسة لدى عمه في كاندي وفيما بعد إلى هنا.

- وقد انغمس بشكل طبيعي في السياسة؟ كانت هذه عبارة الحقيقة البديهية، إذ إن غالبية شباب العاصمة مجبرون إلى حد ما ومرغمون في الأغلب على خوض الحرب الدائرة بين تمرد الشمال والحكومة، مع ذلك، بدا سؤالي قد أثار في ذهن ريتير مفصلا.

نظر إلي بإمعان، وشعرت بانزعاج لأنه استدرك وجودي من جديد، بعد تردد أخير، قرر الخوض في الموضوع، رأيته ينحني إلى الأمام ويلقي بنظرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، أخيرا دخل إلى ما يمكن أن يسمى صلب موضوعه:

- علي أولا أن أعترف لك بشيء شخصي جدا. باشر. قممت بحركة بيدي تعني بأنني ألقى سره بكل طيبة خاطر دون أن أكرهه مطلقا على تسليمه.

- هه، (استأنف وهو ينظر إلى كأسى وإلى أصابعي)، ولدت أثناء الحرب واعتقل والذي في العام 43 حين كان عمري سنتين. كان يتحدث دون انفعال كمن يكتب محضرا شفويا.

- عرف سلسلة سجون في فرنسا ثم في النهاية نقل إلى ألمانيا إلى معتقل باكنفالد، بقي فيه قرابة السنتين.

كانت المصاييح الخافتة التي تضيء الصالة تحيط بها فراشات الأرفة، تضيء على الوجوه وميضاً فوسفوريا مخضراً يزد من شحوبها.

- لماذا اعتقل؟

ندمت فوراً على سؤالي، خشية أن يرى فيه ريتير طريقة فظة للسؤال فيما إذا كان يهودياً.

- كان جزءاً من شبكة مقاومة، (أجاب وفهمت من لهجته الطبيعية أنه لم يتضايق من عدم تحفظي)، أحدهم تكلم تحت التعذيب ووشى به، ولكن لا أهمية لهذا الأمر كثيراً، المهم ليس هذا.

- أين المهم إذا؟ لا أحب الأسرار حين لا تفصح عن ذكريات سعيدة، أنا الذي أحتمل الحرارة إلى حد ما، كنت منزعجاً وقميصي مبلل كلياً في ظهري.

- المهم أنه قد عاد، عاش أيضاً عشرة أعوام، لكن شيئاً ما كان قد تحطم في داخله، ذات مساء من تشرين الأول، شنق نفسه في الغرفة التي كان يستخدمها كمكتب.

مرّ أماننا جمع من رجال الأعمال الإنجليز مسرّحي الشعور ومعطرين من أجل العشاء، وشفّلونا بصخبهم المرح.

- توجب علي أن أعمل فوراً تقريباً كي أساعد أمي، في الخامسة عشرة من عمري، دخلت كممثل تجاري في مشروع

للدهانات، ثم اشترته شركة كبيرة للمنتجات الكيماوية، بقيت فيه وتسلمت المراتب، في هذا النوع من مكاتب العمل، يكفي أن تستمر كي تصعد وحدك.

قام بيده بحركة كمن يقلب صفحات كتاب كبير، كانت بلا شك إشارة إلى أنه يريد القفز فوق قصص كثيرة.

- ماتت أمي منذ ثماني سنوات، كنت قد طلقت قبل ذلك بوقت قليل للمرة الثانية، منذ بضعة أشهر، وصلت رسميا إلى القمة، عينني مجلس الإدارة رئيسا، باختصار، كنت على رأس أول مجموعة بتروكيميائية أوروبية. دخل أولادي الجامعات، كل ذلك، وبشكل طبيعي جدا، كان يحضرني لأزمة منتصف..
ضحك، فاستغللت هذا للقيام بالمثل، مثل مشاهد يتنحج بين مقطوعتين موسيقيتين.

- حدث ذلك في شقة والدي، كنت أقوم بإخلائها كي أعرضها للبيع، فجأة، في قعر خزانة الحائط، عثرت على كل أغراض والدي التي أحضرها من المعسكر.

- هل يمكن حقا إحضار أشياء من المعتقل؟

- أشياء كثيرة، تخيل، وأول الأشياء مراسلاته.

- تقصد أنه كان يتلقى رسائل؟ في باكتفالد؟

- آه، لم تكن تعرف هذا أيضا؟ علمت أنا بذلك منذ ذلك الحين واكتشفت بأنه، تحت بعض الشروط، كان بإمكان المعتقلين أن يكتبوا ويتلقوا الرسائل. بالتأكيد، كان كل شيء خاضعا لأنظمة صارمة، كان النازيون قد طبعوا استمارات خاصة، تجب الكتابة بقلم رصاص وباللغة الألمانية، ويجب أن تكون الرسالة عادية تماما: «أنا على ما يرام، صحتي جيدة، إلخ..»، ولكن في معظم

الرسائل، تجد الخط يتشوه بعد سطرين ويصبح غير مقروء، ما يعني: «أنا منهك»، وهذا - صدقني - أكثر ما يؤثر في النفس. بعد ذلك، تزلق الرسالة داخل مظروف مهمور بصورة هتلر، مع ختم مكتمل الدائرة، شبيه تماما بختم أي مكتب بريد في العالم، عدا أنه سجل عليه ذاك المصدر الفريد: معسكر اعتقال فيمار باكنفالد.. وبالرد، كانت رسائل أمي تصله - البعض منها في النهاية - احتفظ بها داخل جيبه طوال شهور الرعب هذه، نام متعرقا، مرتجفا من البرد وهو يضمها إلى صدره، حتى غدت رقايات متكززة، متكسرة، مبقعة، لكنه أحضرها معه.

كان قد حل الليل كليا، قمر لا يُسرى من حيث كنا، يُبرز خط الأفق الرمادي الرفيع، وأشرعة فضية كشظيات قطعها هذا النصل الرقيق، تتناثر في الأسفل، كان الصيادون خارجين لإلقاء صناديقهم الشبكية.

- عثرت أيضا على الكثير من الأشياء الصغيرة: بطاقات النساء، والطبابة والغداء، احتفظ والدي بهذه الكنوز الصغيرة البائسة، مخبأة داخل لباسه الموحد المخطط، لا شك أن البنطال قد آل إلى أسمال، لكنني عثرت على السترة، نتنة، ملطخة بالبقع، وقد خيط على صدرها المثلث الأحمر الخاص بالسياسيين وشريطة تحمل الرقم الذي وشموه على معصمه.

- ألم يُرك كل هذا من قبل؟

- أبدا، ولم أفكر به مرة واحدة خلال سنوات الانشغال تلك بتحصيل الرفاهية والأموال المادية، مضت حياتي على هامش الماضي، أتقهم؟ شرعت في ذلك الحين أقرأ كتباً عن مآسي القرن العشرين، وبدأت أيضا بتصور السياسة كشيء يختلف

عن كونه رياضة سخيفة تتجابه فيها فرق متماثلة تقريبا حول صناديق الاقتراع بين وقت وآخر، يمكنك أن تحكم بأن الأوان قد فات، ولكن بعد كل ذلك، البعض لا يتوصل إلى إدراك هذا أبداً، على كل حال، اكتشفت وأنا في الخمسين أن التاريخ مأساة، وكان من واجبي أن ألزم به.

- بأية وسيلة؟

- كانت تلك هي المسألة كلها، صاح وهو ينظر إليّ مواجهة هذه المرة، ألا أنسى، هذا فعلاً أمر جيد، لكن احتفالات إحياء الذكرى، المتاحف والذكرى، لم ترضني على الإطلاق، لأنه بنظري، لا شيء انتهى، جرائم الأمس لم تجعلنا معفوين من جرائم اليوم، الذكرى لا قيمة لها إن لم تضيّ الحاضر والمستقبل.

- ولهذا اخترت العمل الإنساني؟ قلت بحماس، سعيداً جداً بالوصول إلى نهاية الحديث.

عبس ريتز في الحال:

- آه! صدرت عنه وهو يطأطئ رأسه، العمل الإنساني، أنت تدرك.. لست واثقاً من أن هذه هي الكلمة بالتحديد، حين يحتفظ المرء بذكرى المعسكرات، يحكم على كل ذلك بريبة، هل كان إحضار الأغنية إلى «أوشويتز» هو الحل؟ ما كنت أحاول القيام به هو اجتثاث الشر من أساسه، تخليص هؤلاء المسحوقين من الديكتاتوريات.. برنامج طموح أمنحك إياه، لكن المشكلة تكمن في وسائل تحقيقه، وأعترف لك بأنني لم أجد شيئاً مرضياً، اخترت في النهاية الأمم المتحدة، لأنه هُيئ لي بأن هذه المنظمة تمثل المثال الأعلى القريب مما أرغب به. في الأصل، الأمم المتحدة هي إرادة اعتراض على قوة،

وبالتحديد بريرية، لكن عندما أرى بماذا وظفت هنا، بالقرب من الضحايا.. أنا أوافقك الرأي، هذا يختزل تقريبا ما ندعوه عملا إنسانيا. بئس الأمر، الأفعال أقل أهمية من أسبابها، أليس كذلك؟

توقف عن الكلام لحظة محرجة، وهذه المرة، كنت أفهمه جيدا؛ أنا أيضا لم أكن مرتاحا كثيرا بتبرير ما أفعله طوال النهار، عندما اخترت السلك الدبلوماسي، كان لدي أفكار كبيرة في رأسي..

- اعذرني على هذا الاعتراف الطويل قليلا، إنما كان علي أن أشرح لك كل هذا للوصول إلى قصة اليوم، ها هي؛ أحسست بالحاجة إلى الاحتفاظ بذخيرة من معتقل أبي، اخترت أكثرها فظاعة من بين الكل، الأكثر تأثيرا في عيني؛ سترته المخططة كسجين محكوم بالأعمال الشاقة، أحملها معي إلى كل مكان، تمثل بالنسبة لي الرعب الأقصى.

- أفهمك. قلتها وأنا أقصد العكس في نهاية الأمر.

- إنه فعل شعائري، نوع من التطير أعرف مقدار سخفه، لكنني أقول لنفسني طالما الوحش سجين هنا فهو لا حول ولا قوة له، هناك بالتأكيد عذابات في هذا العالم، لكن أيا منها لم يبلغ القمة بعد، تصنيع الرعب هذا الذي بلغه الرايخ الثالث، ما يزال الخطر موجودا، لم يتم القضاء عليه وربما يكون ذلك مستحيلا، أقصى ما نستطيعه هو وضعه تحت المراقبة.

- كان بوسعك وضعها داخل صندوق ولا تشغل بها.

- لا، أحتاج كي أشعر بها إلى جانبي، تحت حراستي، في علبتها.

- علبة باندور⁽³⁾، (أضفت قائلا) لا أريد أن أضيع فرصة للإسفاف.

ابتسم متسامحا وأنا - صدقا - ممتن له، ثم وقف فجأة وسألني متخذا لهجة قوية وواثقة:
- ماذا تفعل وقت العشاء؟
- لا شيء خاصا..

ثلاث أو أربع مرات أجرينا أحاديث في المطعم نفسه، مكان مزدحم جدا، تأتي إليه راقصات ليبهجن السكاري، التردد الذي أبديته كان عائدا لذكر ذلك المكان المبتذل والذي، هذا المساء، لا يبدو ملائما جدا لجدية الحديث.

- لنذهب إلى المطعم الصيني المقابل. قال ريتز.

بددت هذه الفكرة البسيطة تحفظي، وافقت بسرور، من الواضح أننا لم نبلغ العمق الحقيقي للقصة التي كان يريد أن يحكيها لي، وكنت مشغول البال جدا بدور المدعو راهوال الذي يمكن أن يكون له فيها.

أمام فندق «غول فيس»، يحاذي البحر ميدان طويل، متراس حجري يشرف على الشاطئ؛ حين ينحسر البحر، يبدو الرمل كله شائكا بأغصان أشجار زرعت لتكسر الموج، اسودت من الملح وغطتها عناقيد من الأصداف، عند حلول المساء ونهايات الأسبوع، يجتمع سكان المدينة هنا لإطلاق الطائرات الورقية لتحملها نسيمات البحر إلى ارتفاعات مدهشة، عند خروجنا من الفندق فوجئنا بازدهام من جهة البحر، كان باعة الفوشار والمثلجات قد ركزوا عرباتهم في

(3) إشارة إلى الأسطورة الإغريقية إذا تم فتح هذه العلبة تخرج كل الشرور والمصائب إلى العالم.

كل مكان تقريبا، ومجموعات من الشباب في معظمها تنتقل من واحدة إلى أخرى ضاحكة، كانت النسمة البحرية تختلط بروائح الأطعمة البحرية اللاذعة لدهون خبز الباتشولي المرقوق والشواء، كان الحشد صاخبا جدا لدرجة استغفينا معها عن أن نكون جزءا منه، شققنا طريقنا الواحد تلو الآخر حتى زاوية المتراس حيث تلتصق اللافتة البرتقالية والصفراء للـ «اللقط الإمبراطوري».

بالكاد جلسنا أمام زيادي البورسلين، ريترو وكما استشعرت، تابع حكايته التي على ما يبدو لم ينسها قط:

- البارحة صباحا، بدأ دون أدنى تهديد، تلقيت زيارة مندوب سويسري للـ CICR⁽⁴⁾، جاء يحدثني عن تقرير سيظهر في جنيف الشهر المقبل، وهو تحقيق مكتمل تماما عن الحرب في هذه البلاد، هل تعرف هذه الوثيقة؟

- لا، لدينا في السفارة شخص للمسائل الإنسانية..
- وافق السويسري على ترك نسخة لي، قرأتها دفعة واحدة في مكتبي، فيها كل شيء، إنها دامغة تماما، وصف فيها بالتفصيل القمع الحكومي وظروف السجناء المتمردين في السجون، الجبايات غير القانونية ضد المدنيين، التعذيب.. ولكن نجد فيها أيضا جدولا كاملا بانتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبتها حرب العصابات، المتمردون مفتونون بالموت وبالتضحية، يحمسون أولادهم ليجعلوا منهم مقاتلين عُميا لا يفكرون سوى بالتضحية بأنفسهم بارتكاب هجمات انتحارية.
- يبدو لي أن كل هذا قد سبق أن قيل..

(4) الهيئة الدولية للصليب الأحمر.

- ليس بهذا الوضوح، ليس بهذا الكم من التفاصيل المريعة، في كل الأحوال، اضطرب كياني، منذ أن اخترت هذا الطريق الجديد، لم أشعر قط حتى الآن بأنني في مواجهة مأساة بهذا العمق باستثناء مأساة الحرب العالمية الثانية، شاهدت الكثير من الآلام، ولكن ولا واحدة، وأجهل السبب، لم تبد لي على قدر الآلام التي عاناها والدي.

وضعت أمامنا قطع رقائق الأرز الملفوفة الكاملة الدسم، لكن الجوع الذي كان يملكني جعلني أزدريها دون انزعاج من رائحتها الزنخة. بالنسبة لريتير، لم يكن يبدو واعيا حتى لوجود هذه الأغذية الدنيوية.

- بعد ظهر اليوم، (استأنف)، لم أذهب إلى المكتب، كنت بحاجة لترتيب أفكاري بالبقاء هادئا في منزلي، كان راهوال هناك، عادة يعمل وحيدا، وأتخيل أنه لا يقوم بالشئ الكثير، كان وجودي يزعجه، بدأ بعرض نشاط صاحب، كنت أسمعهم يصدم المكينة الكهربائية بالأبواب، نحو الساعة الرابعة، طلبت منه شايًا، وراودتني فكرة أن يحضر اثنين، بينما يشربه معي سأستعيد هدوئي، ربما كان لدي رغبة بالحديث بشكل خاص. أشرت للنادل بتغيير الأطباق، على الرغم من أن ريتير بالكاد لمس طبقه، لكن من الواضح أنه كان مندفعًا وليس أمامي سوى أن أدعه يتابع حتى نهاية حديثه.

- رسميا، ليس لراهوال علاقة بالمتمردين بالتأكيد. في الواقع، كان له علاقات عديدة معهم، لذلك سألته فيما إذا كان يؤكد ما قرأته، إذا كان يعرف مثلا أنه يوجد في الشمال البعيد، في مناطق تسيطر عليها العصابات المسلحة، حداثق للأولاد

المتذورين لطائفة الموتى، المزينة بصور الشهداء المقاتلين، شباب في غالبيتهم، لطفاء، باسمين، وفي أغلب الأحيان يمزقون أنفسهم بتفجير أحزمة ناسفة وسط تجمعات للمدنيين، أكد وأوضح بناء على طلبي أنه في مدن الملاهي الغربية هذه، الأراجيح على شكل رشاشات وهياكل الدبابات حولت إلى مزقات. حدثته أيضا عن الفدائيين السود المكلفين بالقتل وبارتكاب أعمال بربرية، قال لي إن الأمر لا يتعلق بالبربرية إنما بالحرب، حرب عادلة زيادة على ذلك والتي تشترع استخدام وسائل استثنائية.

لم يسبق لراحوال حتى ذلك الحين أن اتخذ جانب المتمردين بهذا الوضوح، لكنه بعد ظهر ذلك اليوم كان قد قرر استقرازي. تحدثنا عن السجناء وبرر بالحجج نفسها التعذيب والإعدامات التعسفية، حاولت استخدام الحجة القديمة المسماة المعاملة بالمثل، يجدر عدم معاملة الآخرين كما لا نريد أن يعاملونا، إلخ.. نظر إلي هازئا واتخذ بكل زيف هيئة الأبله الذي لا يفقه شيئا (لكنني كنت أرى عينيه تلتمعان)، قال لي:

- ولكن، لا تخف، يسخر المتمردون من الكثير مما يفعل بهم حين يصبحوا سجناء، إذ إن لديهم برشاماتهم!
- أية برشامات؟ سألته.

- كبسولات السيانونور⁽⁵⁾ المتدلية من أعناقهم، الكل يحمل واحدة منها، معلقة بسلسلة صغيرة، إذا ما اعتقلوا، يقضمونها وينتهي الأمر؛ يموتون، هيه! هيه! لماذا إذا تريدون أن يحرموا من القيام بما يريدون مع سجنائهم؟
نظرت إليه بحدة، وقلت له:

- بسجنائهم الأحياء، راهوال.

اكتفى بهز كتفيه بحركة من لا حول له تجاه الذين يرتكبون الحماقات.

لم يلمس ريتز طبقه الثاني أيضا، ووجدت أنه من الرحمة أن أقول بضع كلمات كي يتوقف ويأكل.

- إنه جريء، صديقك راهوال حين يجاهر هكذا لصالح المتمردين، للشرطة أذان في كل مكان في عاصمتنا الحميدة، قد يكلفه ذلك غالبا.

- هو عادة أكثر حذرا، لكنه يعلم جيدا أنني لن أشي به أبدا مهما كان رأيه، فضلا عن ذلك، فقد اندفع بجسارته إلى حد أبعد نوعا ما، عندما سألته إذا كان يوافق على أن يضع أحد أولاده في معسكرات التحضير للموت، نظر إلي بابتسامة ساخرة كمن يقول: «أنت بنفسك اعثر على الجواب»، كان لوقاحته موهبة في إغاضتي أشد الغيظ، شتمته، وهنا، أعتقد أنه خاف، ليس من الشرطة، إنما من أن يفقد عمله حين رأى غضبي.

- لا أفهم لماذا تناقش شخصا متعصبا، هذا غير مجد.

- أنت لا تفهم. صاح ريتز بحركة نفاذ صبر جعلتني أطيّر كرية الرز، لم يكن ذلك موجها إليه بشكل خاص، بل كنت أتحدث هكذا من أجلي ومن أجلي فقط، كنت بحاجة لأن أصرخ بوجه أحد ما يثقل على قلبي، فضفضت له بكل شيء حينها.

ضحك هازئا، لكنها ضحكة صغيرة حزينة، مثل صرخة مريض يطلق صرخة: «لقد شفيت»، في لحظة تسليمه الروح.

- أخرجت كل شيء، نعم.. حدثته عن شرك الهمجية، سألته إذا كان يرى الخطر بتبني الوسائل الإجرامية للدولة التي يريدون

النضال ضدها وبمناقصتها بالعنف الأعمى، ما الذي سيحصل في الغد إذا ما أتى أصدقاؤه المتمرّدون إلى السلطة؟ الجهاز الشمولي الذي ضبطه أثناء الحرب سوف يتخذ أبعادا وحشية في وقت السلم، وسيغدون أسوأ من هؤلاء الذين يريدون أن يحلوا محلهم.

توقف ريتز للحظة وسكب قليلا من البيرة الصينية في حنجرته المشتعلة من الغضب.

استمر الحديث قرابة الساعة، إذا أمكن أن ندعو ذلك حديثا، لأنه لم يكن هناك من يتكلم سواي، المسكين راهوال، لدى رؤيتي بأي حال كنت، أصفى إلي ببساطة، بهيئة مبدلة على نحو غامض، وقار يمتزج فيه الإنهاك بنفاد الصبر. لكن، لسم أكن أبالي، كنت قد خرجت عن طوري، أكملت دورتي حول عالم الاستكار آخذا أمثلة من كل مكان، من الخمير الحمر حتى الطالبان، من الثورة الإيرانية إلى الماويين الصينيين، من أكراد حزب العمال الكردستاني إلى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، لم أكن متأكدا من أن هذا يعنيه مهما يكن، لكنني كنت معاندا، أردت أن أظهر له أنه يجدر الحكم على نيات هؤلاء الذين يريدون السلطة قبل أن يستولوا عليها، في النهاية، بما أنه كان لا بد من الوصول إلى أوروبا، ألفت نفسي أحدثه عن الرايخ الثالث، عن المعسكرات، عن برنامج الإبادة الذي كان واضحا في تصريحات هتلر قبل الحرب، وفجأة أدركت على نحو صاعق حماقتي، وحتى لا أفقد رياضة جأشي تماما، غادرت الغرفة صافقا الباب..

عند تلك اللحظة، نهض دبلوماسي كندي من معارفي عن طاولته مع بعض الأصدقاء وحيانا بمودة، كان ذلك التوقف

مؤاتيا كي أطلب الحساب، استغل ريتز الموقف كي يزدرد بضع لقيمات من لحم العجل بالصلصة الحارة، كان جليا أنه بحاجة ليستعيد قواه.

- لم أتوقف عن التفكير في ذلك، بعد أن خرجت من منزلي، وتذكرت فجأة أنني في العام الماضي، صادفت راهوال في الشارع مع ولد في السابعة باهر الجمال، كانت بشرته داكنة جدا كالبرونز المصقول، وسط هذا السواد تلمع عينان باللون الأخضر الزمردى بزموشهما الناعمة الطويلة، قدمه لي راهوال على أنه ابنه، وفيما بعد، كنت أسأله على الدوام عن أخباره، كان يجيب على نحو لا يتغير بأن الولد بصحة جيدة. وفجأة، قبل ستة أشهر، أعلن لي برصانة ولكن بلامبالاة غريبة أنه قد مات. أنا على يقين الآن من أنه جعل منه شهيدا للقضية، فكرت مجددا بعينه الخضراوين ببراءتهما المشوبة، أتخيلهما الآن مليئتين بحقد فظيع، في مكان ما في الشمال، إلا إذا كانتا قد تمزقتا بقبيلة..

استغللت سوداوية ريتز كي أدفع الفاتورة المتواضعة وأخذه خارجا، عندما أصبحنا في الشارع، خطونا بضع خطوات هادئة باتجاه الحي الرئاسي حيث يسكن كلانا، كان الباعة الصغار قد جهزوا بضاعتهم، تسري الآن في الشوارع الرمادية طراوة لطيفة، كانت تتناثر فوق الإسفلت المغبر علب البطاطا المقلية الفارغة والعصي الخشبية الصغيرة.

- لا شك أن راهوال كان خائفا على وظيفته بعد غضبي، (قال ريتز وهو ينفث عميقا نفخة من التبغ)، حين تغيبت نحو الساعة الرابعة من أجل موعد كان لدي في المدينة، ضاعف همته كي

يفرك البيت، كان يحاول بالتأكيد أن ينال رضاي، لسوء الحظ، مسكني صغير وأعيش عازبا، كما تعلم، ذلك لا يعطي الكثير من الفرص لموظف بدوام كامل كي يبدي الهمّة، إذ إن كل شيء نظيف ومرتب. بحث راهوال بيأس عن الوسيلة كي يضرب ضربته الكبرى ويكفر عن خطيئته، على الأقل، هكذا أظن جرى الأمر.

مرت قافلة من ثلاثة كلاب جرداء، وفي خلو الشارع المضاء بالقمر، راودتنا تقريبا رغبة بإلقاء التحية عليهم.

- هكذا، بعد عودتي لاحقا، كان راهوال قد غادر، استحسنت من جديد، الرابع في ذلك اليوم، ولكن برطوبة هنا.. بعد ذلك، بحثت عن لباس نظيف كي آتي وأتأول معك كأسا، فتحت خزانتى، كل بدلاتي منسقة هناك بنظافة، كالعادة، فوق علاقات، أمسكت بالسترات واحدة واحدة من الكتف للعثور على بذلتي الصحراوية البيج.

توقفنا، ولا أعرف القول لماذا، دون شك لأن ريتز قد جمد، على كل حال حين التفت إليه كان ممتعنا.

- في تلك اللحظة رأيته، كانت موجودة بشكل لا عيب فيه، بين بذلتي الكتانية والأخرى السموكينغ التي أحتفظ بها داخل كيس، هي التي لم أرها قط إلا مجمدة، مرمية ملفوفة وخرقة، محفوظة دون مراعاة وبكراهية تقريبا، كان راهوال قد أخرجها من محفظتها، غسّلها، كواها، وها هي معلقة على علاقتها، وكأنها منتفخة بكتفين بشريين، بخطوطها الزرقاء والرمادية، لا بل رتق المثلث الأحمر ونمرة المعسكر، كانت سترة باكنغالد جاهزة، بالنسبة إليّ، بالنسبة إلى العالم، كان الرعب قد خرج من علبته.

قطار الحياة

حدثت القصة في ليلة عادية، في الخريف، منذ سبعة أعوام، لكنني لم أنسها، في كل عام وفي الموسم نفسه، تعود إلى ذاكرتي بأدق تفاصيلها، تحمل لي سعادة حزينة لا بل مؤلة إلى حد أسفت معه لوقت طويل عدم استطاعتي مشاركتها مع أحد، ربما بكتابتها، سأتوصل إلى ذلك..

فسي بعد الظهيرة ذاك، كنت أجلس في قطار، في محطة باريس الشرقية، وأنتظر أن يرحل، كان قطارا قديما قرميدي اللون، النوع الذي أؤثره، فهو يذكرني بطفولتي وبأنني لست على عجلة من أمري، كنت عائدا إلى بيتي في «آردين»، تركت سيارتي في موقف للسيارات في «شون»، لم يكن هناك مخاطرة بأن تسرق بالنظر إلى هيئتها وعمرها، من «شون» يبقى لي ساعة على الطريق، أسكن وسط الريف، في بيت من الحجر الأصفر، منعزل عند تخوم الأراضي الزراعية والغابة، هذا خيارى فأنا طفل المدينة في الغالب، لكن يلزمني متسع من المكان كي أمارس مهنتي؛ التحقيق المصور المستقل. خلال نصف السنة أجوب العالم، أنفتح على كل اللقاءات، وفي الخريف، ألتجئ إلى العزلة وأعمل، لو كنت سجين غرفتين في المدينة لأصابني الجنون، بالسعر ذاته، لدي مكان أجول فيه، وحين لا أكتفي بذلك، أخرج

إلى الحقول، حول منزلي، أسكنت الحروب الأرض بالأشباح، وهي رفيقتي.

في ذلك اليوم، كنت عائدا من باريس حيث كنت أفاوض على عقد عمل جديد أكثر فأكثر شحا مع الوكالة التي تبيع صوري، رغم ذلك، هو عقد وسيسمح لي بالاستمرار في العيش من مهنة أعشقها. استغللت الزيارة كي أقوم بفحص طبي شامل، بمناسبة اقترابي من الخمسين، كل شيء كان طبيعيا؛ قلب ممتاز، كولسترول منخفض، لا إيدز ولا التهاب الكبد C، أوففف!

البارحة مساء للاحتفال بذلك، دعوت عشرة من أصدقائي للعشاء في أحد المطاعم، كانت السهرة ممتعة ولم أُنم كثيرا، حسبت أن أعوض في القطار، لكن القصة لم تبشر بالخير، على مسافة عدة مقاعد مني، جلست زمرة من الفلبينيات يضحكن ويتحدثن بصوت مرتفع، كان القطار يتابع حتى لوكسمبورغ وهن يعملن هناك دون شك، رحت أتخيلهن خادومات في البيوت مثل أخريات كثير، وليس لديهن المال ليقدمن لأنفسهن مكانا في القطار السريع الذي يطير باتجاه أوروبا الشمالية؛ لكن لم يكن باديا عليهن التعاسة بسبب ذلك، كنّ متحمسات كليا بعد القيام بالتبضع في باريس، سراويل جينز ضيقة جديدة تماما، أحذية NIKE آخر صرعة، أوشحة كشمير موشاة، كن ينبنشن داخل رزماتهن ويعرضن لقياهن وهن يطلقن صيحات الفرح.

أعطي هذه التفاصيل الدقيقة كي أجعلكم تشعرون بشكل أفضل بالجو الذي كانت تغرق فيه هذه العرية. رشّت الفتيات أنفسهن بالعمطور مرة أخيرة قبل معاودة ارتداء ثوب الخادومات، وتحولهن إلى رزينات لدى أسيادهن، كنّ سعيدات ومتعبات،

أراهن أنهم قضين الساعات الأخيرة في السرير مع الرفيق الذي لن يرينه قبل أسابيع طويلة، بينما كنت أسمعهن يروين لبعضهن بصوت منخفض قصصا بلغة لم أكن أفهمها، كنت غارقا بحلم شهواني جعل مزاجي جذلا.

دوى صوت المراقب فجأة، في قطارات «الكوراي»، احتفظ المراقبون بلهجة الطبقة الكادحة الفريسة، والتي أعطت لوقت طويل سحر الشركة الوطنية للخطوط الحديدية (قبل أن تفرض شركة القطارات الفائقة السرعة على موظفيها اللهجة اللطيفة المتكلفة لشركات الطيران)، تلا الرجل بحزن مسبحة محطات درب الآلام الطويل الآخذين بعبوره، اختتم بإعلانه إقفال الأبواب، في الصمت الذي تبع ذلك، سمعنا في الخارج جلبة كوكبة فرسان، وصيحات امرأة، ثم في نهاية العربة، صوت مكتوم للبوابة وللحقيبة، في اللحظة ذاتها تقريبا، دوت على الرصيف صافرة وارتج القطار.

فتح الباب السحاب وصعدت إلى الممشى فتاة أفريقية شابة تلهث بشدة وهي تجر وراءها حقيبة بلاستيكية، توقفت عند مستواي، تأكدت من تذكرتها، وأشارت لي بأنها ستشغل المكان الشاغر إلى جانبي، وقفت أفسح لها مجالا كي تمر، واقتربت بكياسة أن أرفع حقيبتها إلى الرف، كان علي أن أرتاب، فقد سافرت دائما إلى أفريقيا، قد تكون بوزن صاحبيتها، وبدوت في الواقع مضحكا بمحاولاتي الثلاث لرفعها، حتى إن إحدى الفلبينيات الأطول من رفيقاتها حاولت أيضا القدوم لنجديتي. انتظرت واقفا إلى أن تجلس جارتني، احتفظت بمعطفها الأسود، وحشرت بين ساقها حقيبة سفر قماشية تحملها

بالورب على صدرها، وأفهمتني ورأسها مسند إلى المقعد، أنها لن تتحرك بعد الآن، جلست وسمعتها تطلق تنهيدة طويلة، لم تكن مع ذلك بسبب المنظر المحزن لأبراج الكهرباء الصدئة والجدران المجذومة التي تتعاقب من وراء النافذة، هي زفرة ارتياح لشخص واثق من أنه لن يصل إلى أية نتيجة، فتشت في حقيبتها، أخرجت منها قطعة قماش بيضاء كبيرة لتستخدمها كمنديل، وبدأت تجفف جبينها وعنقها. تركتها تفعل ذلك بكل اللباقة الممكنة، وغرقت في الصحيفة المجانية التي سلموني إياها عند خروجي من المترو، أمقت إزعاج النساء في الأماكن العامة، كمبدأ، أمتنع عن مبادرة توجيه الكلام إلى امرأة لا أعرفها، رغم فضولي، طبقت هذه القاعدة على جارتي الجديدة.

في أثناء ذلك، وبينما كنت أقرأ مقالا دون أهمية عن الانتخابات المحلية أو شيئا من هذا القبيل، لم أتمكن من ردع نفسي عن مراقبتها خفية، كنت وأنا ألقى نظرات خاطفة نحو النافذة، ألتقط بضع صور لها، كان لدي الكثير من الحجج كي أختلس النظر، فهي دون أن تتفوه بشيء لم تكن تتوقف عن الحركة، أخرجت من حقيبتها زوج صنادل بلاستيكي أخضر، من النوع السكandinافي المزيف بشكل مشبوه، انتعلته بدل حذاءها الجلدي ذي الكعب العالي، وأصدرت ضحكة ارتياح صغيرة، أتاحت لي إحدى النظرات أن أرى جمال ساقها، لم تكن ملابسها لتبرزها، كانت تلبس تحت معطفها المفتوح على اتساعه قميصا أبيض وتتورة ضيقة من القماش الأسود خالية من أية بهرجة، أثارت تلك التفاصيل عندي آلية الاحتمالات التي تتطلق بسرعة كبيرة كما سبق أن أدركتم، تركت نفسي أنساق لسلسلة من التصورات،

«كي تلبس على هذا النحو الكئيب، تشكل هذه الفتاة بالتأكيد جزءاً من جماعة دينية، فضلاً عن ذلك، هذا شائع جداً اليوم في أفريقيا، أتباع أحد العناصر⁽⁶⁾ وغيرهم لوثركينغ، يشكلون مصيبة». رحت أتخيلها تتشد المزامير وهي تصفق بيديها، وحين أخرجت من حقيبتها كتاباً صغيراً، كنت لأراهن على أي شيء بأنه إنجيل.

كان يتوجب علي التحقق من الأمر، خالفت هذه المرة شيمى، فاجأت نظرتي بينما كنت أرمق كتابها بجسارة، وجدت نفسي مثيرة للشفقة مرتين؛ للإمساك بي بالجرم المشهود، ولأنني أخطأت، لم تكن تمسك إنجيلاً إنما مذكرة كبيرة، لاحظت مناورتي وابتسمت لي للحظة قصيرة، عدت للقراءة، أصبح الأمر الآن لعبة فيما بيننا، كل منا يعرف بماذا يكتفي، أدركت أنني تركت لها المبادرة وهي تأخذ وقتها، استمرت بتصفح مذكرتها وهي تمصّ قلم حبر، في إحدى اللحظات، تلوّت في مقعدها، ظننت بأنها تريد خلع معطفها وتبعدني كي أفسح لها مكاناً. - شكراً، قالت وهي تهز رأسها، سأبقى فيه قليلاً، رائحتي عرق قوية.

الإشارة المنتظرة تم إعطاؤها، ولكن بشكل يدعو للدهشة على الأكثر، فالحديث إلى شخص عن رائحتك الخاصة هو بمثابة تجاوز مراحل عدة بقفزة واحدة والوقوف فوق الحيز المزعج للخصوصية. أخفيت ارتباكي وأنا أغغم بإسفاف: - لا، لا، لا تتبعث منك رائحة شيء، في النهاية، أقصد لا شيء سيئ.

(6) تيار ديني نصراني إنجيلي نشأ في الولايات المتحدة الأميركية عام 1906.

استدارت نحوي وكانت عيناها تضحكان، كانت طبيعية كليا، وفرحت لرؤيتي طبيعيا إلى حد ما، أتاح لي هذا الحدث العارض الفرصة كي أتفحص وجهها، في البداية لم ألحظ سوى جدائلها الصغيرة التي تغطي رأسها، لم تكن جميلة ولا متقنة ومرنة، كانت بالأحرى كميكات تتسلق جمجمتها، صفتها الرئيسية إبراز ملامحها بشكل كامل.

كان وجهها أملس تماما مثل حجر مصقول، وجنتاها بارزتان، وحرف أنفها مرسوم بشكل جميل وشفاتها الممتلئتان تشكلان زوايا واضحة مع ذقنها وخديها، كانت هذه الدقة الهندسية الشديدة شبيهة بقناع من أقنعة شعب مالي أكثر من شبيهها بوجه امرأة شابة، لكنها كانت تحرك كل ذلك بتعبير ماكر، ترمش برموشها دون توقف، تتقافز نظرتها من مكان إلى آخر، وحين تثبتها تكون مفعمة بالمرح، تمرر لسانها فوق شفيتها فيجعلها القليل من لعابها تلتصقان.

- هذا لأنني ركضت دون توقف من عملي حتى المحطة، حتى إنني لم أجد الوقت لخلع زِيّ.

وأنا بكل غباء، الزيّ يعني الجيش أو الشرطة:

- زيّك..؟

جعلتها هيئتي المندهشة تضحك.

- نعم، أنا نادلة..

نادلة، بالتأكيد، التتورة السوداء، القميص الأبيض، الحذاء الموكاسان.. لقد ذهبت بعيدا جدا بقصصي الدينية.

- و.. هل تعملين بعيدا؟

- في دينفر روشيرو، هل تعرف المقهى الواقع على زاوية جادة

الجنرال لوكليرك؟

كذبت كي أبدو شخصا مهما، لم يخطر ببالي قط بأنني سأسعدها بهذا القدر.

- أم، أنا سعيدة لأنك ذهبت إلى هناك من قبل، هل كنت على الغداء؟ صاحب المطعم يحضر تارت الليمون المزين بحلوى الميرنغ، إمممم! إنه لطيف جدا، هو وزوجته، هما من أوفيرني، بالتأكيد، لكنهما كريمان جدا مع ذلك..

كان ليظن بأنها عرفت لتوها بأننا أبناء عم، كانت نبرتها خفيفة، يصعب تحديدها، مزيج من لهجة أفريقية وباريسية، كانت تتابع حديثها إلي عن مطعمها عندما صاح هاتفها داخل حقيبتها، أخرجت منها جهازا مستديرا، صدفيا، علقت عليه دمية شقراء صغيرة مربعة، قرأت الرسالة التي ظهرت فصارت ملامحها خطيرة.

- اعذرني، علي أن أعيد الاتصال.

شكلت رقما، انتظرت، ضربت بأصابعها فوق الهاتف المحمول.

- هكذا دائما، نسيت أن أشحنه وفي الوقت الذي أحتاج

إليه..

- هل تريدني هاتفي؟

- هذا لطف كثيرا لن أخذه طويلا، إذا كان هذا لا يزعجك

حقا؟

لا أدري لماذا، ولكن خالجنى شعور بأن كل هذه المسرحية للوصول إلى هنا، أخرجت من جيبى جهازى النوكيا العتيق المعاصر تقريبا لظهور الجهاز الخلوي، كانت شفقة ولم تسخر مني.

- هل تعرف في أية ساعة نصل إلى لوكسمبورغ؟ سألتني

وهي تتسخ فوق الأزرار رقما سحبته من مفكرتها.

- أنا أنزل قبل ذلك، ولكن دعيني أحسب، سوف نكون في

شون الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، سأضيف نصف ساعة كاملة، احسبي منتصف الليل تقريبا .

- شكرا .

تركت المكالمات ترن، ولكن لا أحد كان يرد على ما يبدو .

- هل تسمح لي بإرسال رسالة قصيرة؟ يرن في الفراغ .

- تفضلي .

عندما انتهت بذلت جهدي كي نعود للحديث .

- هل تذهبين إلى لوكسمبورغ؟

كان ذلك كل ما وجدته، ولم يبدو أنه سيأخذنا بعيدا، ولكن

لدهشتي الكبيرة، بدا السؤال ملهما .

- لا، هناك أغبر، فيما بعد أخذ قطارين آخرين، في الواقع،

أنا ذاهبة إلى ألمانيا، إلى كييل بالتحديد، أمي وأختي تقيمان

هناك، هل تعرف؟ آه عذرا، هل تعرفون؟

- يمكننا رفع الكلفة .

- حسنا، هذا أسهل، لا أتوصل كثيرا لقول أنتم، حتى الزبائن

في المقهى، أحدثهم بصيغة المفرد .

ابتسمت بتهذيب .

- اسمي واسا، قالت، وأنت؟

- بول .

هزت رأسها برصانة وكأنها تنثني على خيار والدي .

- إذا بول، أنت لا تعرف كييل؟ (استأنفت)، الحقيقة، لم يفتك

شيئا، أنا نشأت في تلك المدينة، لكن ما إن تمكنت من الفرار

حتى رحلت إلى فرنسا، منذ سبع سنوات وأنا أعيش في باريس،

في البداية كان الأمر قاسيا ولكن تحسن الحال .

ختمت وهي تخلع معطفها هذه المرة، لم أستطع منع نفسي من تقصي رائحتها، كانت مزيجاً من عطر رخيص بخلاصة الورد ومسحوق غسيل نفاذ بروائح الخزامى، ربما في السريرة يمتزج معهما طرف رائحة ممسكة أكثر لا شك أنها صادرة عن جلدها، كيف لي أن أفهمها بأن هذه اللمسة الإنسانية، رغم كل شيء، هي التي تجعل المجلد طيباً؟

- هل ولدت في ألمانيا؟

- لا، أتى أهلي من مالي حين كان عمري ثمانية، والدي هجين ووالدتي مزيج من الهواسا والموسي، هي من هولندا العليا، أعرف تماماً أنها بوركيما، لكن نحن لم نعتد على ذلك قط، ونقول دائماً هولندا العليا.

أطلقت ضحكت فيها صيحة الفرحة التي غالباً ما سمعتها في الأسواق الأفريقية، حكيت لها بأني أعرف جيداً تلك المنطقة، سألتني عن مهنتي، وأصغت بتعجب وأنا أروي لها عن التحقيق المصور للحرب، الذي بدأت به، والأسباب التي من أجلها انتقلت شيئاً فشيئاً إلى المواضيع الأكثر حرية، صور عن الأسفار، عن الأعراق.. انطلق الحديث وكانت طبيعية جداً، لا شيء يعطلها، قدرة على الحديث عن كل شيء ومع كل الناس ويكثر من المزاج الطيب، مع ذلك شعرت بأن هناك شيئاً ما يشغل بالها، كانت وهي تثرثر تتابع النباش داخل حقيبتها وتعبث بمذكرتها وتنتظر إلى ساعاتها، عندما رن هاتفنا معلنا وصول رسالة، أدركت أنها كانت تنتظرها بفارغ الصبر.

- عفواً، (قالت)، طلبت أن يرسل لي رسالة..

مررت لها الهاتف بكل طيبة خاطر.

- هل هي أمك القلقة؟
- ليست أمي، لا. قالت بتحفظ وهي تفتح الرسالة.
- قرأت النص بصمت، دون أن تتغير ملامحها.
- خطيبي.
- ضربت بأصابعها على الأضرار كي تمحو الرسالة وأعادت لي الجهاز.
- إنه ألماني، (أعلنت برزانة)، ألماني حقيقي من هامبورغ.
- لم أعرف فيما إذا كانت نبرتها موجهة لإعطاء الأهمية لهذا الخبر أو أن هذا الإعلان يتسم بصفة مأساوية، مثل الكشف عن مرض خطير.
- هل أنتما معا منذ مدة طويلة؟ سألت بفضول صريح.
- لم أتضايق من إقحام رجل في محادثتنا، الحق يقال، لم يكن لدي أية نية محددة تجاه هذه الفتاة، لم أكن أرغب بأكثر من صحبتها، أثناء هذه الرحلة اللانهاية، بما أنها تحدثت عن خطيبها فقد أوضح ذلك نوعا ما الموقف ورفع الغموض عما كنا نتبادل. مع ذلك، كان ثمة شيء يستمر بإقلاقها، كانت تجيبني بشرود، تنظر معظم الأحيان عبر النافذة إلى اللانهاية، غاصت من جديد داخل حقيبتها التي تحتوي على عدد غير معقول من الأغراض المختلفة، التقطت منها نوعا من الأنابيب، بلاستيكا أبيض، وقبضت عليه بيدها، اعتذرت ونهضت نحو دورة المياه، عادت بعد لحظة طويلة بهيئة جدية، قررت أن أتركها وشأنها وذهبت لإحضار المشروبات من عربة البار.
- حصل المشهد المسرحي أثناء عودتي وأنا أحمل علبة كوكاكولا في كل يد؛ توقف القطار في الأرض العراء، لا شيء غير عادي،

ظاهريا، ستقولون لي، لكن سوف أجيبكم بأن الأحداث الكبرى غالبا ما تتخذ أقدعة خادعة.

لدى وصولي إلى مكاني، ألفيت جارتي في أسوأ حالاتها، كانت تخطط برجليها، تنظر عبر النافذة محاولة أن ترى أبعد ما يمكن نحو الأمام، كي تحزر ما الذي يمكن أن يوقف القطار. - هل تعتقد بأنه سيعاود الانطلاق قريبا؟ صاحت بي عندما رأته.

اكتفيت بهز كتفي، إن توقف قطار كوراي وسط الطريق يمكن أن يكون أي شيء باستثناء أن يكون حدثا استثنائيا.

- شغل مكابحه فجأة، هل لاحظت؟ أمل ألا يكون صدم شيئا ما، ذلك يحصل غالبا على ما يبسو، أن تقوم القطارات بقطع السيارات إلى قطعتين لدى مرورها على تقاطعها.

- ليس إلى هذه الدرجة، مع ذلك! أجببت بكل هدوء، لا تقلقي، سيعاود الرحيل.

لم تكن تنبؤاتي تطمئننها، أعادت إخراج ما ظننته منديلا، وهو في الواقع منديل مائدة التقطته دون شك من مطعمها، لفته على شكل كبيبة في قبضتها وراحت تمسح فمها بعصبية، مثل غالبية الرجال، أميل بشكل طبيعي أن أنسب للنساء مقدرة التنبؤ، بالأخص في مجال الكوارث، وسمعة الأفريقيات في هذا المجال لا عيب فيها، تملكني رغما عني خوف غامض ودون سبب محدد، يستطيع القطار أن يتوقف قدر ما يريد، ذلك لن يغير الشيء الكثير بالنسبة إلى وضعي، لا شيء ولا أحد كان بانتظاري، باستثناء سيارتي، قدّر لي ألا يكون عندي أولاد، والآن بعد أن تجاوزت الأربعين بكثير، لم أعد آسف على ذلك، تستقبلني بعض

الصديقات هنا وهناك، ولكن ولا واحدة كانت تخاطر بالمجيء لاصطياد الذئب في حجره.

- علي أن أغير قطار في لوكسمبورغ، (قالت بلهجة تشير الشفقة)، سيكون الأمر مأساويا إذا ما فاتني، القطار التالي لن يكون قبل بعد ظهر الغد.

فكرت فجأة بأننا في الحادي عشر من تشرين الثاني.
- تقطعين الجسر، أليس كذلك؟ لهذا، بالتأكيد أربعة أيام قصيرة جدا للذهاب بعيدا هكذا.

كنت أدرك أنها لا تريد قضاء اثنين منها في القطار. هزّت رأسها.

- أنا معتادة على ذلك، أذهب إلى هناك مرة كل شهر، سبق لي أن قمت بذلك في أسبوع واحد، لا، المشكلة..

في اللحظة التي كانت تحدثني عما يشغل بالها، حدثت في وجهي وشيء ما جعلها تتردد، في تلك اللحظة، توجه المراقب إلى المسافرين كرعد يسلم رسالته إلى الأرض من الغيوم، زار في مكبرات الصوت معلنا أن العطل جسيم، ويستحيل معرفة متى سنعاود الرحيل، قويل كشف السر هذا بانفجار صرخات، راحت الفلبينيات يزعنن فرحات، فكرة الوصول متأخرات أفرحتن، كل الحالات الطارئة تعجبهن ولا يبدوون في الظاهر مستعجلات للقاء أسيادهن، أطلق بعض الفرنسيين صيحات إستكار بلهجة مطلبية، لكن الأمل برؤية شركة الخطوط الحديدية الوطنية ترد قيمة البطاقة في حال التأخير الطويل خففت من هذا السخط بأمل مخفي، أما من صاح بفداحة لدرجة أسكتت الآخرين للحظة فهي جارتني واسّا.

وقفت وأطلقت زئيرا حقيقيا، ثم هوت في مقعدها وشرعت تتنحب.

قليل القول بأنني بدوت كالأحمق، ماذا أقول لغريبة تتابها نوبة عصبية لأن قطارها قد تعطل؟ في الحقيقة، لم يطلب أحد مني شيئا، لكنها أفلحت، حتى دون أن توجه لي الكلام، بإقتاعي أنني كنت مسؤولا عن مصيرها.

بعد قليل، عبر المراقب بلحمه ودمه هذه المرة بخطا سريعة يتبعه رهط من المسافرين الهائجين، لم يخطر على بالي قط أن يكون هناك هذا الكم من الناس المستعجلين داخل قطار كوراي، لدى رؤيتهم، اندفعت واسًا بملاحقته هي أيضا، عادت بعد حوالي عشر دقائق، أكثر انهزاما من قبل، في الوقت ذاته تقريبا، حدد إعلان جديد ما توجب عليها معرفته من قبل: لن ينطلق القطار مجددا قبل ساعتين كاملتين.

- كم لديك من الوقت لتبدلي القطار في لوكسمبورغ؟

- ساعة ونصف، لقد قضي الأمر.

بقيت لا أقول شيئا، راحت تبكي من جديد، هذه المرة، كان وجهها ساكنا، تتكاثر الدموع على رموشها، تتدحرج على طول خديها وتتهمر على تنورتها السوداء دون أن تحاول الإمساك بها، لا شك أنها أضاعت منديلها على الطريق، عندما قررت في النهاية أن تجفف وجهها، استخدمت ظاهر يدها.

- كانت هذه آخر فرصة لي. قالت بصوت مهموس.

- لكن لا، سوف تأخذين القطار التالي غدا ورغم كل شيء..

قامت بإشارة تعب من يدها كي توقفني.

- أنت لا تعرف. بدأت، لكنها انتظرت قليلا كي تتابع، حتى
ظننت أنها لن تقول شيئا بعد .

عادت وأخذت مفكرتها وراحت تقلب صفحاتها بحزن، ثم
فجأة أعادت إغلاق الدفتر الصغير بصخب قاطع ومالت نحوي.
- نحن لا نعرف بعضنا البعض، ولكن سوف أحكي لك كل
شيء، بس الأمر، يجب أن أتكم، لا يمكنني أن أبقى هكذا، دون
أن أقول شيئا .

نشقت، ورمقتي بنظرة خاطفة.

- ولكن، أحذرك، إنها قصة بنات.

- أحب كثيرا قصص البنات.

- لا، أنت تحب البنات، الأمر ليس مشابها.

عاد الالتماع الماكر لنظرتها، كان ذلك إشارة جيدة.

- في البداية، يجب أن أقول لك: صديقي الألماني غني جدا.
- هذا جيد .

- لا، إنه فاحش الثراء، ليس هو، هو لا يزال صغيرا، ولكن
عائلته.

- وأين المشكلة في ذلك؟

كانت قد عثرت على مندبل ورقي وراحت تعيد ترتيب وجهها
وهي تتابع الحديث معي، أدركت أنها انطلقت، لا، بل لم تعد ترد
على أسئلتي.

- والداي وأنا، عندما غادرنا مالي، وصلنا في البداية إلى
فرنسا، وجد أبي عملا في سارتوفيل، كنت مسرورة جدا هناك،
لكنه توفي في السنة التالية في حادث، دهسته سيارة.
- هل كان لديه عدة زوجات؟

- بالضبط، قالت وهي تتطلع إلي مندهشة لطرحي هذا السؤال، أمي الزوجة الثانية، بقيت الأولى في البلاد، حدثت تعقيدات، قصص أوراق، وقعنا في الطفر التام، كنا ثلاثة أشخاص عشنا داخل ثمانية أمتار مربعة، أختي وأنا، لم يكن لدينا ما نأكله سوى ما يقدم إلينا عند الظهيرة في مطعم المدرسة، توجب العثور على حل، بمساعدة إمام يعظ هي تلك الأنحاء تعرفت أمي على تركي يعيش في ألمانيا، تزوجت منه ورحلنا جميعا لملاقاته في كييل.

إعلان جديد أعلم المسافرين بأن الانتظار سيطول إلى ثلاث ساعات، هزت واسًا كتفيها.

- الآن على كل حال.. نعم، كنت أقول لك، ألمانيا.. حسنا، لأدع التفاصيل، كان لدى التركي مرآب صغير، أصبحنا بحال أفضل، صار لدينا قوت، لكن كييل كانت الجحيم بالنسبة لي، هادئة، باردة وثرية، لم يكن لدي شيء أفعله في بلاد كهذه، تابعت دراساتي الثانوية حسب استطاعتي. الألمانية، أتحدثها ولكن لا أحبها كما هو واضح، عندما غادرت البلد للعودة إلى فرنسا، لم يكن لدي هناك أي صديق.

- وخطيبك؟

- تعارفنا لاحقا، في المرة الأولى التي عدت فيها إلى ألمانيا كي أزور أمي.

- هل تعارفتما في قطار إذا؟

- نعم، في قطار، ولكن ذلك القطار لم يكن معطلا.

لم تعد تبكي ورأيته صراحة تضحك.

- أنت تفهم، باريس كانت طيبة معي، حصلت معي بعض

القصص الصغيرة هناك، حين رأيت هذا الصبي الجميل الخجول جالسا قبالي، لم أتردد، كانت أُمي قد أرسلت لي بطاقة القطار السريع لأقرر العودة لرؤيتها، كانت الرحلة سريعة في القطار السريع، مع ذلك، كنا قررنا لدى وصولنا أننا سننزوج وانتهى الأمر.

- هل عرّفك إلى عائلته؟

- في الحال، هنا تعقدت الأمور، والده رئيس شركة كبيرة، رجل كسب ثروات، لا يستفيد منها كثيرا. لاحظ، هو في نوع من المشافي منذ خمس سنوات، الزهايمر.

- والأم؟

- أنت عالم بها، تطرح الأسئلة المناسبة، الأم شريرة، ما إن رأيتي حتى أعلنت الحرب.

- لماذا؟

- برأيك؟ نادلة صغيرة مفلسة، وسوداء فوق ذلك، تسرق منها ابنها الوحيد، كانت ترى له مستقبلا آخر، صدقني.

- هل هي عنصرية؟

- لم يعد هناك عنصريون في ألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية.

لعلها تمزح دائما، حتى إنها لم تبتسم.

- تصارعت معها خلال سنتين، لم أصارعها حقيقة، فهي مأكرة جدا لتسمح بذلك. رسميا، أهدنا يوقر الآخر، لكنها تفعل كل شيء كي تكسر الذي بيني وبين باتريك، وأنا أعرف ذلك، اسمه باتريك.

- فهمت.

- في البدء، أقنعت به بأن ليس عليه الزواج فوراً وأن لا شيء يدعو للاستعجال، ومنذ ذلك الحين، وبلفظ، حاولت إبعاده عني، راحت تعرفه إلى بنات صديقاتها (لاحظ هنا، أنا لا أخشى أحداً)، تخيفه بقصص الشعوذة، ويكون ذلك في غاية المكر، لا تتحدث أبداً عني بشكل مباشر، أفسى ما في الأمر هو أنني لست هناك كي أرد الضربة بضربة، آتي قدر استطاعتي، ولكن حتى بالتدبير مع رئيسي وزملائي، يصعب علي التفتل أكثر من مرة كل شهر.

- لماذا لا تذهبين للسكن هناك بما أن هذا مهم بالنسبة إليك؟
- بأي مال؟ أنفق كل شيء في هذه الرحلات وعلى الملابس، لا تنظر إلى لباسي الموحد، ملابس في الحقيقة، عندما أرغب أعرف كيف أتأنق.

نظراً لوزن حقيبتها، في الواقع يبدو أن لديها مجموعات.
- تقولين بأن لديه المال، بإمكانه أن يخلصك من مأزقك؟
- هذا أسوأ ما في الأمر.

كانت الفلبينيات قد غفون، والعربة المتوقفة بإضاءتها الضعيفة تشبه شرفة مقهى على بحر الشمال، في خارج الموسم، كنا نسمع الريح في الخارج تضرب على النوافذ مطراً أسود ناعماً، غيرت وائساً وضعيتها، كما هي جالسة، استدارت نحوي وأسندت ظهرها إلى دعامة العربة.

- يجب أن تفهم؛ باتريك ولد، إنه أصغر مني سناً، لا يمكن ملاحظة هذا لأنه طويل وصلب العود مثلك، فضلاً عن ذلك، أنتما متشابهان قليلاً، لكن هو، داخل رأسه عمره اثنتا عشرة سنة، بوسعك أن تصدقني، ليس لديه أدنى فكرة أية حياة شاقة

أعيش، ولو حكيت له لانتابه الخوف، لا تنتظر أمه سوى ذلك كي تفسر له أنني أريده من أجل مالهم. وعليه، ليس فقط لا أطلب منه شيئاً، إنما حين نكون معاً، نتقاسم كل شيء، لا بل وغالباً، أنا التي أدفع.

- اعذريني إن سألتك هذا، ولكن.. هل تحببته؟

- بالتأكيد أحبه، إنه صبي لطيف، متعلم ويحترمني. حدثت فيها بنظرة لا شك أنها بدت لها مرتابة فانفجرت غاضبة.

- في كل الأحوال، هو الرجل الذي أحتاج إليه، وأنا على يقين من أنني سأتمكن من إسعاده.

نشقت، كنت أنظر إليها بإمعان، هي صادقة على طريقتها، فيها مزيج مؤثر من المصلحة الشخصية والعفوية، من اللامبالاة والمكر، لم أكن قادراً على أن أعرف إلى أي حد كانت هي نفسها مقتنعة بمشاعرها، لكنها كانت قد اختارت وهي ثابتة العزيمة.

- وهو، أين هو من كل ذلك؟

- هو، لا يمكن التأثير عليه، حين لا أكون هناك، تكسر أمه بي بلا توقف، شيئاً فشيئاً، سوف تتوصل بالتأكيد إلى انتزاعه مني، الشهر الفائت، حققت انتصاراً مذهلاً، وهو الأحق، لم يفهم شيئاً من خدعتها، أقنعتة بالذهاب لمدة سنة إلى الصين من دوني ليقوم بالتأهيل.

- ماذا يدرس؟

- الكونغ - فو.

- أنت تمزحين؟

- إطلاقاً، إنه في غاية الجدية، كان لا شيء في المدرسة،

لكن الفنون الحربية استهوته على الدوام، دفعة واحدة، تعلم الصينية وسوف تدفع له أمه كلفة عام في دير على ما يبدو أكثر قساوة أيضا من معبد شاولين أو قمة جبل وودانغ اللذين يحدثني عنهما طوال الوقت، وكذلك بالمصادفة، هو دير لا يوجد فيه سوى الرجال.

كانت تروي ذلك بنوع من الحماس، كلاعب شطرنج يصف الحركة الراحلة لخصم ماهر.

- سوف يرحل في غضون أسبوعين.

لدى ذكرها لهذه المهلة، اغتمت وبدأ جناحا أنفها بالارتعاش، ظننت أنها ستبدأ بالبكاء ثانية، لكنها قفزت نحوي واستعد وجهها ملامح قاسية ومصممة.

- الحل الوحيد، أعرفه منذ وقت قصير، هو أن أكون حاملا، أعرف باتريك، هو يجب الأطفال، يحترم العائلة، إذا أصبحت حاملا، فلن يتركني بعد الآن.

- ما الذي يمنعك؟

- أنت تظن أن ذلك سهل حين تسكن بعيدا هكذا؟ يجب أن أكون هناك في الوقت المناسب، لقد مرت سنة تقريبا منذ قررت ذلك، ستصدقني إذا أردت، لكنني لم أتوصل قط إلى مطابقة التواريخ..

- التواريخ..

- الإباضة، هناك وقت لهذا، لكنك سمعت بالحديث عن هذا؟

- تحسبين أوقات الإباضة؟

- ليس في البداية، في البداية لم أكن أحسب شيئا إطلاقا، لم أكن آخذ حبوبي لمنع الحمل وأفكر، ما يحصل ليحصل، لكن

الوقت يمضي والآن أعرف أنه سيرحل، أنا مجبرة على القيام بذلك بشكل علمي، انحنى نحو حقيبتها واستعادت الأنبوب البلاستيكي الأبيض الذي شاهدته تتلاعب به بيديها في بداية الرحلة، سحبت الطرفين وفتح كاشفا عن سلم مدرج.

- هل تعلم ما هذا؟

- ميزان حرارة؟

ضحكت وهي تهز رأسها.

- سبق أن قلت لك هذه قصص بنسات، كل الفتيات يعرفن ذلك، هذا اختبار الإباضة، يعمل معي بشكل جيد لأنني منتظمة، هل ترى الخط الأزرق الصغير هنا، يدلك أين أنت، إذا تجاوزت تحت هذه الإشارة بفارق، ينتهي الأمر لهذه المرة، يجدر انتظار الدورة القادمة.

هذا ما راحت تتأكد منه في دورة المياه إذا.

- خلال الأشهر الأخيرة، لم يكن لدي الحظ، لم أتمكن من التفرغ عند الوقت المناسب، لم يتزامن قط مع نهاية أسبوع، عدا الشهر الفائت، ولكن عند ذاك كان هو مريضاً ولم نفعل شيئاً.

- وهذه المرة؟

- هذه المرة، كان الأمر على ما يرام، ولكن كان يجب أن أصل غداً باكراً، سبق أن هيات كل شيء لإيقاظه وجعله يسافر، هو كسول جداً في الصباح، إنه في الغالب من النوع الذي ينام إلى وقت متأخر.

أعادت وأسا إغلاق الأنبوب، وألقت به في حقيبة يدها المفتوحة، قضي الأمر وانهزمت، كان ثمة شيء حزين للغاية في استعراض هذه الطفلة الشجاعة التي لم تقدم لها الحياة

أية هدية لكنها لم تتراجع قط، الأكثر صعوبة في هذه القصة، لم يكن الفضل، إنما الظلم، لم تكن تستحق ذلك، كنت وأنا أنظر إليها، لا أشعر لا بالشفقة ولا بالأسى، من الحماسة ربما أن أقول، فقط بالإعجاب.

اليوم حين نذكر هذه القصة مع وائسا فذلك كي نضحك، لقد مر الزمن، قلت لكم منذ سبعة أعوام، المشهد لم يتغير، لا أزال أسكن في الأردن، وللوصول إليها أركب العربات الكثيرة نفسها. أما بالنسبة لوائسا، لحسن الحظ، فهذه قصة قديمة، ترسل لي أمانيتها كل عام مع صور لباتريك، لقد ورث الثروة عن والده في السنة الماضية، يعيشان في منزل رائع في هامبورغ ويقضيان الصيف في فيلا كبيرة على شاطئ الريفييرا بالقرب من بورتوفينو، مع ولديهما، الصبي هو الأصغر، والبنت تكبره بسبعة أعوام. لها على ما يبدو طبع مستقل جدا، الصور التي أرسلتها لي وائسا سيئة، كنت لأخذ بدلا منها بكل طيبة خاطر لكنها على ما يبدو لا تتمنى أن ألتقي بعائلتها، باتريك لا يعلم بوجودي من دون شك، وهذا أفضل.

لم ألتق وائسا مرة ثانية سوى مرة واحدة، في باريس في شهر كانون الثاني الفائت، شربنا كأسا في مونبارناس بالقرب من فندقها، ازداد وزنها قليلا، لكن ذلك كان يليق بها جدا، كان يصعب التعرف عليها إلى حد ما، ترتدي فستانا ماركه، تغطيها مجوهرات الذهب الأبيض، شعرها مسرّح ومتبرّجة بعناية، صعب علي كثيرا التعرف على النادلة الصغيرة صاحبة الوجه الذي أفسدته الدموع والتي كانت تبكي بأسها، ولكن حين أتينا على ذكر أمسية العربة الشهيرة، تعرفت إليها جيدا، ما إن

تتكلم، تدب فيها الحركة، تتغير ملامحها، يعود كل شيء؛ الطفلة الماكرة، سنوات الشقاء، القدرة على المخاطرة بكل شيء، لقد أعدت التفكير بها دائماً، صحيح أنني لا أمتلك ذكريات واضحة حول هذه النقطة، أكدت لي واسّا أن ما حصل كان بسببي، لا أستطيع تصديق ذلك، ألا تحاول على الأغلب إقناعي بأنني أنا من قررت كل شيء؟ هذا بحق أسلوبها مع الرجال.

مع ذلك، ليس بوسعي أن أكون جازماً تماماً؛ وبقي التسلسل الدقيق للأحداث مبهما قليلاً في ذاكرتي، أمر وحيد لا ريب فيه، عاود القطار رحيله تلك الليلة نحو الحادية عشرة والنصف، بعد ثلاث ساعات من التعطيل، أجد نفسي بعد ذلك أنزل حقيبة واسّا من حمالة الأمتعة، كانت فعلاً ثقيلة، لحسن الحظ، كان فيها دواليب صغيرة، ومن ناحيتي، لم يكن معي سوى حقيبة ظهر صغيرة مع معداتي، كانت السيارة في موقف السيارات كما هو متوقع، وقد انطلقت من أول دفعة رغم رطوبة الليل، أذكر أننا مزحنا طول الطريق وواسّا كانت تضحك بصوت عال، كان كلانا متوتراً، نظرت إلى بيتسي دون أن تتمكن من إخفاء الشفقة التي أحست بها تجاهي، لكنها كانت من النوع الذي يحترم أذواق الآخرين. في النهاية، لم تكن هنا إلا ليلة واحدة، كنت قد وعدتها باصطحابها في بداية ما بعد ظهر اليوم التالي إلى المحطة للحاق بالقطار الذاهب إلى هامبورغ لإكمال الرحلة. أخذت حمّاماً طويلاً وانضمت إلي ملفوفة بمنشفة، كنت قد دفأت الغرفة بشدة وغيّرت الملاءات بسرعة، كانت أوجه الوسائد غير متماثلة بالتأكيد لكننا ضحكنا عليها كفاية، كان لديها، كما خمنت، تحت رداءها، جسد هتي ومشدود، شعرت كأنني أعرف

جسدها من قبل وهي لم تبدُ مستغربة من اكتشاف جسدي .
لكن فيما يخص مَنْ اتخذ القرار، يبقى ذلك لغزا غامضا،
هي تدّعي بأنني سألتها في القطار فيما إذا كانت لا تزال
خصبة بحسب جهازها في تلك الليلة، ولأنها أجابتي بالإيجاب،
اقتрحت عليها أن أصنع لها الطفل الذي كانت تحتاج إليه، في
نهاية الأمر، لن يكون لدى الوالد الرسمي أية وسيلة ليعرف
الحقيقة أبدا .

لا أذكر أنني قلت كلاما كهذا، وجدت الفكرة ممتازة لكن
لا أظنني قادرا إلى هذا الحد أن تخطر على بالي أنا بالذات،
الحق يقال، هذا سؤال لم أطرحه على نفسي لأول وهلة، مقتنع
كلّيا بجدية مهمتي، قمت ببساطة بواجبي بحميّة،
كانت ليلة طويلة، ممتعة وجميلة، وإذا نسيت القليل من
كلامنا، لكنني أحتفظ بذكرى لا تنسى عن أقل حركاتنا .
في النهاية، لا ينال المرء دائما هذا القدر من المتعة حين يفعل
الخير .

لينا بدر

- مواليد 1961. سورية
- بكالوريوس في الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة الفرنسية.
- عملت في تدريس اللغة الفرنسية وأمانة المكتبات.
- ترأس جمعية Lattaquié accueille الفرنكوفونية.
- ترجمت العديد من القصص القصيرة وقصص الأطفال التي شاركت بها في الدوريات الأدبية العربية.
- ترجمت العديد من الروايات الحاصلة على جوائز أدبية منها: «المكيدة» للكاتب دومينك بوديس، «اليوشا» للكاتب هنري ترويا، «السمكة الذهبية» للكاتب ج.م. لوكليزيو، «أهيون» للكاتب ماكزانس هيرمين، «العودة إلى كازابلانكا» لفؤاد العروي.

أ.د. كاميليا صبحي

- أستاذ الترجمة بقسم اللغة الفرنسية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- وكيل أول وزارة الثقافة بمصر للعلاقات الثقافية الخارجية.
- كما شغلت سابقا العديد من المناصب داخل مصر وخارجها من بينها:
- ملحق ثقافي، ومستشار ثقافي رئيس البعثة التعليمية بفرنسا وسويسرا وبلجيكا في سفارة ج.م.ع في باريس.
- أمين عام المجلس الأعلى للثقافة - ومدير المركز القومي للترجمة.
- صدرت له العديد من الترجمات من بينها:
- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر 2000، المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة.
- جرامشي في العالم العربي 2001، المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة.
- ذكورة وأنوثة (عامله الأنثروبولوجيا بالكوليج دي فرانس فرانسواز إيريتيه) الهيئة المصرية العامة للكتاب 2003.
- الشعر الأفريقي المعاصر - مختارات ودراسات - بالاشتراك - المجلس الأعلى للثقافة - 2003.
- الجزء الثالث من موسوعة جامعة كل المعارف «ما هو المجتمع» (المجلس الأعلى للثقافة - المركز الثقافي الفرنسي 2004).
- رحالة وكتاب مصريون إلى فرنسا في القرن التاسع عشر - أنور لوقا - (بالاشتراك) من إصدارات دورة «شوقي لامارتين» باريس - أكتوبر 2006 - مؤسسة البابطين.

تأليف : ليونيد أندرييف	314	حياة إنسان
تأليف : ميخائيل بولجاكوف	315	دون كيشوت
تأليف : كنيث ياسودا	316	واحدة بعد أخرى تفتتح أزهار البرقوق
تأليف : خلدون طاهر	317	ملحمة علي الكاشاني
تأليف : جلال آل أحمد	318	نون والقلم
تأليف : تشاندراسيخار كامبار	319	سيرى سامبيجي
تأليف : جورج أورويل	320	أيام بورمية
تأليف : ايتالو كالزينو	321	ست وصايا للألفية القادمة
تأليف : ت. س. إتيوت	322	السكرتير الخصوصي
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	323	قصص برازيلية
تأليف : رولان بارت	324	شذرات من خطاب في العشق
تأليف : جيمز ماكبرايد	325	لون الماء
تأليف : أمريتا بريتام	326	وجهان لحواء
تأليف : اليخاندرو كاسونا	327	المنزل ذو الشرفات السبع
تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين	328	من الأدب الباكستاني الحديث
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	329	مختارات من القصة التركية المعاصرة
تأليف : بهرام بيضاني	330	مسرحية محكمة العدل في بلخ
تأليف : بنانا يوشيموتو	331	مطبخ - خيالات ضوء القمر
تأليف : جونتر جراس	332	الطباخون الأشجار - الجرة المكسورة
تأليف : هاينرش فون كلايست	333	شمل تشابه ضائع
تأليف : أندريه شديد	334	حكايات الهند الأمريكيين وأساطيرهم
تأليف : فلاديمير هلباتش	335	زهرة الصيف
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	336	طام - طام زنجي
تأليف : ليوبولد سيدار سنغور	337	الليبروج
تأليف : نيكولو ماكيافلي	338	منزل النور
تأليف : جوهر مراد	339	كثبان النمل في السافانا
تأليف : تشنوا أشيبي	340	أناقول وجنون العظمة
تأليف : أرتور شنييتسر	341	غرام ميتيا
تأليف : إيقان بونين	342	أرنجندن والجاراس الليلي
تأليف : فيمي أوسوفيسان	343	ورقة في الرياح القارسة
تأليف : تنغ - هسنغ يي	344	مدرسة الدكتاتور
تأليف : إيريش كسترن - تيد هيوز	345	رسائل عيد الميلاد
تأليف : سليمان جيغو ديوب	346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك
تأليف : فريدريش شيللر	347	مسرحية عذراء أورليان



جان كريستوف روفان

كاتب فرنسي.. ولد في بوج في 28
حزيران / يونيو 1952.
عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ
2008.

رئيس سابق لحركة «ضد الجوع».
سفير سابق في غامبيا والسنغال.
أمضى عشرين عاماً من العمل مع
المنظمات الإنسانية وحقوق الإنسان.
تنال أعماله إقبالاً وتقديراً كبيرين
نظراً لبعدها الإنساني العميق.
من أهمها:

الفخ الإنساني. دار لاتيس 1986.
الحبشي. دار غاليمار 1997، والتي
نالت جائزة غونكور وجائزة المتوسط.
القضايا الخاسرة. دار غاليمار 1999.
والتي نالت جائزة أنقراليه وجائزة
إروينبيرجو.

برازيل الحمراء 2001، والتي نالت
جائزة غونكور والجائزة الكبرى من
الأكاديمية البحرية.

رحلة لا تنسى 2013، منشورات
غيران، والتي نالت جائزة نومادز.
نال أيضاً جائزة الريشة الذهبية عن
مجمل أعماله.

سبع حكايا تعود من بعيد

من لا يحب الحكايا؟

جعلها جان كريستوف روفان في كتابه هذا سبعةً، ربما كل يوم حكاية، أو من كل بحر واحدة.

تنقلنا بعض هذه الحكايا إلى بلاد غريبة وثقافات مختلفة. ولأنها من بعيد، فهي تقوم بدور صلة الوصل بين البعد الجغرافي والبعد الزمني. من موزمبيق إلى كيرغستان. من جبال الألب الإيطالية إلى سواحل جزيرة موريس. سبع حكايا مفعمة بروائح البحر والبر. لكنها تقطر فطنة عالية تجاه حال العالم والدوافع العميقة للكائنات البشرية. هي ندعو القارئ إلى رحلة خارجة عن المؤلف بصحبة أشخاص قدرها واحد تقريباً، مشدودة بطريقة ما إلى ماضيها.

تكشف هذه النماذج عن نقاط ضعف وحنين وآمال تأبى الاندثار. عبر هذه الحكايا نصادف حضارات غير قابلة للتعايش. جروحاً من التاريخ لم تندمل بعد. وغير ذلك حالات حب عبر القارات وأوقات سعيدة تشاركها الشعوب.

هو الكاتب الرحالة الباحث عن كنزه. تحت أكوام التراب والحصى تظهر له فينقض عليها بكل سرور.

في أغلبها وصف لمشاهداته. فلقد كانت أمامه كل الفرص كي يدرك بحسه الإنساني العالي القضايا المعاصرة الكبرى.

برؤيته الفريدة أعطى للقضايا وجوهاً إنسانية نقرأها في هذه الحكايا. إنها لحظات حياة يشاركنا إياها مبحر وانضباطية عالية.

روفان طبيب الجسد وطبيب الروح أفضل من يرى الاختلاجات المأساوية للعالم. لهذا تأتي أعماله كلها في مصاف متقدمة لقارئ من العالم.